المقدسي

حياة اربع
من شهيرات النساء

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

تجليد حاتم الدقر
تلفون ٢٢٢٩٧٧

CA
920.7
M23hA
c.1

حياة اربع

من

شهيرات النساء

28854

طُبع في المطبعة الاميركانية في بيروت السنة ١٩٢٦

المقدمة

لتاريخ الافاضل تأثير عظيم في النفوس ولاسيما في نفوس الاحداث. ومن منا يقرأ حياة شخص امتاز بالنبل والذكاء ولا يشعر بدافع خفي نحو الاحسن والافضل. وقد جئت في هذا الكتاب على ترجمة حياة اربع من النساء الفاضلات اثنتان اوربيتان وواحدة اميركية وواحدة شرقية اقدمهنّ مثالاً للفتاة الشرقية ليكنّ نبراساً لها في خدمة عائلتها وبلادها

والفضيلة لا تختص بامة ما ولا تحصر بجنس من الاجناس فهي تظهر في الشرق كما في الغرب. وكنت اود كثيراً ترجمة حياة بعض السيدات الشرقيات اللواتي جاهدنَ في خدمة بلادهنّ وتكللت جهادهنّ بالفوز والنجاح وانما منعني من ذلك كونهنّ لم يزلنَ في قيد الحياة ولمن متسع من العمر لاظهار اكثر من نتيجة خدماتهنّ ولا بد انهُ متى اكملن شوطهنّ سيقوم من يكتب سيرة حياتهنّ ويخبر الاجيال المقبلة بما بذلنهُ من التضحية والجهاد في خدمة الله والانسانية. فترى فتياتنا ان المرأة الشرقية لا تقل عن اختها الغربية في البذل والخدمة اذا تيسرت لها وسائل العلم والتهذيب الحقيقي

امينة خوري المقدسي

ملاك السجون

اليصابات فراي

قامت اليصابات فراي في عهد كان اهلوهُ يرمون المرأة التي تخرج عن دائرة بيتها بسهام الانتقاد والتعيير. وكانت هي نفسها من القائلات ان اعظم الواجبات الخارجية لا ينبغي ان تشغل المرأة عن واجباتها داخل بيتها. ومع شدة محافظتها على ذلك عودت نفسها ان تفتكر ساعات فراغها في من حولها من الناس فرأت هنالك طبقة يجب مساعدتها فوجهت قواها للعمل بما يوحي لها ضميرها واشعلت جذوة الصلاح الضعيفة في احط البشر وانعسهم حالاً فانهضت مئات الى العيشة الفضلى. فلا عجب اذا رأينا تمثالها منصوبًا ابدًا في هيكل الفضل يقدم له بخور الشكر والثناء

ولدت اليصابات هذه سنة ١٧٨٠ في مدينة نورويتش من اعمال بلاد الانكليز من ابوين اشتهرا بالحكمة والفضل والتساهل الديني مع انهما كانا من طائفة الكواكر المشهورة بالتدقيق والتطرف. ومن يقرأ ما جاء في يومية والدها يرى الخطة التي اتخذتها تلك الفاضلة في تربية اولادها وهاك ما كتبت

"ان القلب لا يكفي بالدين الذي لا يسندنا في صعوبات هذه الحياة واهوال الموت اذ انهُ لا يحتاج الى اقناع بل الى تغيير فهو في غنى عن كتب الجدل والمناظرة. واني اعتقد ان التقوى الحقيقية هي خير طريق لاستقامة الآداب فمن واجباتي ان ادرب اولادي في سنن الديانة الحقيقية ولست اعني

بالديانة الحقيقية اتباع شيعة ما انما هي اتباع الحق الالهي المعلن في كتابه . ولكي يفهم اولادي معنى الحياة ومركزهم فيها ومطلبات البلاد والانسانية منهم يجب ان يدرسوا لفهم حق الدرس وان يكون لهم الملم باللغة اللاتينية واللغة الافرنسية لانها لغة الهيئة الحاضرة . ومن اللازم تدريسهم العلوم الرياضية لانها تنير العقل وتوسع المدارك وتعوّد المرء التفكير . ولا ينبغي اهمال تعليمهم التاريخ والجغرافية على انواعها لانها تكسبهم معرفة الاسباب ونتائجها . ولا انسى انه سيطلب من بناتي علاوة على هذه الامور ادارة المنزل فمن واجباتي تدريسهن فن الطبخ والاقتصاد وفوق هذا كله عليّ ان ادربهنّ على اللطف والمعاشرة لان المرأة بدون لطف وحسن معاشرة لا تأثير لكل ما تعرف او تعمل "

ففي حضن ام كهذه ترعرعت البصابات . ولكنها رُزئت بوفاة تلك الوالدة الفاضلة وهي في سن الثانية عشرة من عمرها وهو السن الذي تكون فيه الابنة في اشد الحاجة الى امها

على ان البصابات هذه لم تظهر عليها علامات الذكاء والنجابة في صغرها ولم تكن قوية الجسم ولذا كانت تمهل دروسها اكثر الاحيان . ولكنها اتصفت منذ نعومة اظفارها بصفة الاعتماد على النفس وحب الاستقصاء مع سلامة في الذوق . فكانت تحل قضاياها بنفسها وكانت تغلب بها صفة العناد والتمسك بارائها فحبها للعناد وميلها للاستقصاء في الصغر تحول بها في سن الكبر الى ثبات عزم داست به الصعوبات المعترضة في سبيل الطرق الجديدة التي كانت تستنبطها لخدمة بلادها والانسانية

ولما بلغت اشُدّها لم تكن تميل الى التدين الا انها لم تزَ ما يشبع نفسها في محلات الملاهي التي كانت تتردد اليها في مدينتها التي فاقت غيرها من المدن في البذخ والاسراف . فوقعت بين عاملين متضادين واستولى عليها الانزعاج

لكن للتربية ولا سيما تربية الام تأثيرًا في نفس الولد لا يمكن ان نحوهُ احوال الحياة الخارجيـة وهذا ما جعل اليصابات تتغلب على ما قام في نفسها ايام صبوتها من الميل الى البذخ والابتعاد عن المبدإ الديني وبعد جهاد داخلي عزمت ان تتبع البساطة والاخلاص في اقوالها واعمالها وان تحترم المبدأ الديني لانهُ اصل كل فضيلة في النفس . ولكي تكون في وسط يساعدها على تربية ذوقها في امور كهذه رأت ان تتمسك بمبدإ طائفة والديها نابذة التدقيق والتطرف

وفي سنة ١٨٠٠ اقترنت بمستر جوزف فراي احد تجار نيوكايت (Newgate) المثريين على انها ظلت بعد اقترانها تدير مدرسة يومية وتتردد على ما جاورها من الفقراء والمساكين

وكانت الاحزاب السياسية يومئذٍ تحول دون استتباب الامن في البلاد وكثر العزل والتنصيب فاختلت الاحوال وعاث الاشرار فسادًا في الارض وكثرت اللصوص وقطاعو الطرق . اما الحكومة فاخذت في زيادة التشديد وتكثير القوانين فكانت تعدم الانسان مقابل تعديات طفيفة كسرقة بعض الدراهم او تزوير ورقة بنك او قتل غزال او اصطياد سمكة او قطع شجرة او تهريب بضاعة وغير ذلك . ولكن هذه الصرامة لم تقلل عدد المسجونين بل على الضد من ذلك فان السجون ضاقت بالمجرمين . وقد اعدم من سنة ١٧٤٩–١٧٧١ في لندن وحدها ١١٠٢١ نفسًا لم يكن بينهم سوى ٧٢ قاتلاً اما الباقون فكانت تختلف ذنوبهم بين مهرب بضاعة ومزور ورقة ومهيج فتنة . وكان بينهم امرأة حكم عليها بالاعدام مع طفلها الصغير لسرقتها قطعة قماش لتنفق بثمنها ذلك الصغير من انياب الجوع . فكانت ويلات السجون اشد وطأة من ويلات الحروب لان مئات ماتوا داخلها من الرطوبة والجوع . ومئات كانوا يلاقون حتفهم بالاعدام . فاخذت الجرائد والكتاب

يومئذٍ يندد بظلم الحكومة مظهرين عدم منفعة تلك القصاصات الجائرة لان المحكوم عليه بالاعدام لقاء ذنب طفيف كان بحسب انه قتل شهيدًا على مذبح استبداد حكومتهِ فيلاقي الموت بثبات جاش وهذا لاشيء من تأثير تلك القصاصات

وفي سنة ١٨٠٣ انتبه البعض الى سوء حالة السجون . ولكن الحكومة كان يشغلها عن مطالبهِ بلادها الداخلية عدوها القوي نابوليون الذي ارعب دول اوربا جمعاء فاخذت تحشد جنودها لكسر شوكتهِ

اما اليصابات فكانت تقف على احوال بلادها في الجرائد السيارة . فرأت ان تسعى باصلاح حالة المسجونين تاركة المطالبهِ الرسمية من الحكومة فذهبت مع بعض السيدات لزيارة المسجونات في بلدتها وكانت حالتهنَّ تحرك الشفقة في اقسى القلوب . وقفت اليصابات ومن معها من السيدات بين اولئك المنكودات الحظ اللواتي زادت شراستهنَّ سوء معاملة السجانين لهنَّ فاصبح منظرهنَّ اقرب الى الوحشية منهُ الى الانسانية . وكما ان الرجل لا يستطيع مباراة المرأة في الصلاح كذلك لا يستطيع مباراتها في الشر فهي اذا ارتفعت نفسها الى العلى اقتربت من الملائكة في صفاتها واذا هوت في مهاوي الشر وصلت الى الدرك الاسفل .

فرجعت مسز فراي من السجن تتوجع في نفسها من حالة اولئك التعيسات وما لاحظتهُ ان المسجونات حديثًا احسن حالاً من القديمات فالسجن على تلك الحال لم يقوَ على اصلاح المذنبين بل زادهم شرًّا

وهذا ما دعاها الى البحث عن ايجاد وسيلة لاصلاح حالة اهل السجون فاجتمعت مع بعض السيدات واخذن يتداولن بينهنَّ في الطرق المفيدة لاولئك المسجونات واول كل شيء ارسلن لهنَّ ثيابًا وطعامًا وكلامًا منشطًا مع مسز فراي فكان لكلامها وقع حسن في نفوسهنَّ وعاش في صدورهنَّ ميت

الرجاء واخذت جذوة الصلاح تزداد تالقاً فيهنّ لسبب ما شعرنَ به من حبها لهنّ

واول عمل عملته تلك السيدة هو انها اقنعت المسجونات بامكانية تعليم صغارهنّ الذين قضت الاحوال ان يكونوا مع امهاتهنّ في السجن . فاخترنَ من بينهنّ من تحسن القراءة واقمنها معلمة لاولئك الصغار . ثم انها وجهت انظارهنّ الى عقد جمعية منهنّ غايتها تشغيل ايديهنّ وعقولهنّ فتتحول افكارهنّ عن الشرور والخاصمات وتعود عليهنّ ببعض دريهمات . وكانت تحبب اليهنّ العمل والنظافة وتبغضهنّ بالكلمات الخشنة والعادات الرديئة . ولا يخفى ما يأخذ عمل كهذا من الوقت والمال لا سيما وان قانون الحكومة كان يحول دون اتمام رغائبها فانهُ كان يباح للمسجونين رجالاً ونساء معاطاة كل انواع المشروبات وكان يحظر عليهم الاجتماع والتكلم معاً ساعات النهار وهذا كان مانعاً كبيراً من القاء التعاليم الدينية عليهم وتوزيع الاشغال بينهم ولما طرحت مسز فراي هذه الكلمة امام من لم الكلمة النافذة في السجن سمح لما يجمع المسجونات معاً والقاء تعاليمها عليهنّ

وهي مع انها البادئة في اصلاح السجون لم تعدم انصاراً من فضليات نساء بلادها ورجالها الذين امدوها بما لهم من المال والنفوذ

وكانت تحرك خواطر الناس وتحملهم على المساعدة بما تحملهُ اليهم من الاخبار المحزنة التي تراها كل يوم داخل السجن . فالّفت سيدات بلدتها جمعية سمينها " النظر في حالة المسجونات " غايتها تدبير ثياب واشغال لهنّ

وقد سبق لنا ان مسز فراي الفت جمعية من المسجونات . ولما اكملت تنظيم قوانينها طلبت من بعض الحكام والوجهاء والسيدات ان يدخلوا معها الى السجن لتلاوة القوانين . وهذه اول مرة دخل حكام وشرفاء بلدتها السجن ورأوا شيئاً من تعاسة المسجونات داخل جدرانهِ المظلمة . وخلاصة القوانين

هي كما يأتي

(١) وجوب تشغيل المسجونات (٢) وجوب الطاعة للوكيلات (٣) المحافظة على النظافة (٤) تجنب الكلام القبيح (٥) وجوب القراءة والصلاة قبل البداءة بالشغل

ولم يمضِ وقت طويل حتى رأت الحكومة فرقاً بين مسجونات نيوكايت وغيرها من المدن فاعتبرت الحكومة عملها وكثر الافاضل الذين يأخذون بيدها. وقدم السر روبرت پيل سنة ١٨٤١ لائحة للبارلمنت يطلب الغاء الاعدام لقاء الجرائم الصغيرة وبعد جدال عنيف بين مجلس الاعيان ومجلس النواب عدلت النظامات الصارمة من حيث الاعدام

ورأت الحكومة ان افضل واسطة تتخلص بها من ازدحام السجون هي ان تنفي من المسجونين الى مستعمراتها البعيدة كاوستراليا وزيلاندا الجديدة. فكانت تملأ مراكبها بأولئك النساء وتتركهم على شواطىء تلك المستعمرات وليس لديهم من المال ما يكفيهم لحين ايجادهم شغلاً فكانوا عرضة لكثير من التجارب خصوصاً النساء فانهن كنّ لعنة على تلك المستعمرات

اما مسز فراي فطلبت من الحكومة النظر في امر المنفيات وقدمت لائحة للبارلمنت تطلب فكهنّ من القيود اثناء السفر واقامة وكيلات على نفقة الحكومة يعتنين بهنّ

وكتب لها مستر صموئيل مدبر شؤون المنفيين في ولاية ويلس من اعمال اوستراليا ما معناه. "يسرني ما اقرأه في الجرائد وما اسمعه من اصدقائي عن رغبتكِ الشديدة في رفع حالة النساء اللواتي وقعن في مخالب الشر وقذفت بهنّ الحكومة الى شواطىء ولاياتها. فانهنّ حين وصولهنّ الى هذه الاقاصي المجهولة لا يجدن ما يساعدهنّ على تحصيل رزقهنّ فيلزمهنّ الجوع وعدم المأوى الى الانغماس في انواع الشر. وقد حاولت كثيراً انهاض همة من لهم السلطة

والنفوذ في بلادنا فلم أُفلح. ولما وقف رئيس اساقفة كنتربري على حالتهنَّ المحزنة توسط بأمرهم امام الملك فامر جلالته ببناء ثكنة لهنَّ لكن الاوامر لم تخرج خارج حدود بلاد الانكليز وقد مرَّ عليَّ نحو من ٢٥ سنة وانا اجاهد في هذا السبيل "

فهذا جدد همة مسز فراي فسعت في بناء عدة ثكنات . وحركت عواطف ارل باثرست Bethurst بكتاب لطيف الى تعيين وكيلات في هذه الثكنات ينظرنَ في اصلاح المسجونات حتى اذا راين احداهن صالحة للخدمة يدبرنَ لها شغلاً مناسباً خارج السجن وان تقام مدرسة لتهذيب اولادهنَّ فاستحسن كتابها وحصلت على كثير من مطالبها . وكانت تزور من وقت الى آخر البواخر الحاملة المنفيين من السجون وهاك ما كتب عنها بعض الافاضل " انهُ لمن المناظر المؤثرة ان ارى سيدات وفي مقدمتهنَّ مسز فراي تجول بين المنفيات وتلقي عليهنَّ النصائح والارشادات بصوت يحركه الحنو والرأفة "

وفي سنة ١٨٤٥ عين مجلس الاعيان مسز فراي عضواً في لجنة اقيمت للنظر في اصلاح السجون وكان برأس اللجنة دوق اف ريتشموند فقدمت لائحة تحوي عدة مطالب منها

(١) وجوب تهذيب المسجونات

(٢) ان يعطينَ كفايتهنَّ من الطعام والشغل وان يعفينَ من الاشغال التي فوق مقدرتهنَّ

(٣) وجوب انتخاب وكيلات لهنَّ فيهنَّ الكفاءة التامة عقلياً وادبياً

(٤) قصاص الجنود الذين يسيئون معاملة المسجونين

(٥) وجوب بناء سجون صالحة للسكن

واحتجت على السجون المظلمة بقولها ان ما اعتادهُ اهل الجرائم من الشرور

"ان هذا لاسعد يوم في حياتي لاني قدرت ان اسرّ بعض منكودي رعيتي واخفف شيئاً من مصائبهم . ما ابهج ذلك المنظر اذ ارى عدداً من المعتوهين قد اجتمعوا حول كاهن يقرأ لهم القصص اللطيفة من الكتاب مع اني لم اصوب اولاً اشارة مسز فراي بوضع الكتب الدينية بين ايديهم . وما اشد فرح اولئك البله حين استماعهم انغام ذلك الارغن الجميل"

ثم اخذت مسز فراي توجه انظار السيدات الى حالة خدمهم ووجوب تهذيبهم فالفت عدة جمعيات لرفع حالة الخادمات

وهكذا قضت هذه السيدة حياتها بخدمة الانسانية ولم تنحصر خدمتها في نوع واحد من الاعمال كما فما اضعف الحجة التي لا تظهر في كل اعمالنا وما اوهن النور الذي لا يضيء الاّ على جانب واحد .

ان حياتها كانت كالشمس التي تنير كل جهات الارض فانها خدمت بلادها ولم تهمل واجباتها كامرأة تاجر وكربة عائلة كبيرة وقد امتاز اولادها في حسن سلوكهم وآدابهم ومقدرتهم على الاعمال

فلا غروَ اذا مدحتها الجرائد والكتاب وقدم لها ملوك الارض واشرافها هدايا الشكر والمنة لانها ساعدت حكومتها على حل اعظم مشكل قام امامها ونبهت افكار الحكام في انكلترا خصوصاً وفي اوربا عموماً الى المسؤولية العظمى التي عليهم من حيث اصلاح السجون فادركوا ان ذلك لا يقوم بالقصاصات الصارمة بل بتسهيل وسائل الاشغال وتأييد الامن الامور التي هي اكبر الدواعي لتهذيب الرعية

وكانت وفاتها سنة ١٨٤٥ ولم تصفُ اواخر ايامها من الاكدار فانها رزئت بفقد بعض شريكاتها في العمل وكان حزنها شديداً على وفاة اخت زوجها التي كانت لها اليد اليمنى في جميع مشاريعها وزاد حزنها وفاة بعض اولادها واحفادها . اما هي فكانت ثابتة الجأش في الاحزان والافراح وفي

الخيبة والنجاح

وبعد وفاتها وجد مكتوبًا في يوميتها هذه السؤالات وقد كانت تمعن فيها يوميًا

(١) هل كنت امينة في تنميم واجباتي نحو الهي والانسان

(٢) هل كنت اقصد بخدمتي ارضاء الخالق والمخلوق

(٣) هل اتممت واجباتي نحو زوجي واولادي وهل كنت اجعلهم يطيعونني كأم

(٤) هل كنت انبه خدمي بلطف على اغلاطهم

(٥) هل اتبعت اليوم هذه الآية "فكل ما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم ايضًا بهم"

فلورنس نيتنكال

ان الداخل الى مستشفى مارتوما في عاصمة الانكليز يرى الاطباء والممرضات يسرعون لخدمة المرضى وتخفيف آلامهم . ويرى هناك ايضاً في احدى القاعات تمثال امرأةٍ تحمل قنديلاً واذا دققت النظر في هذا التمثال يلوح لك في وجه صاحبته مخائل الحزم والثبات والتروي والحكمة واللطف . فهذا التمثال هو تمثال فلورنس نيتنكال وقد نصب في ذلك المستشفى ليكون مثالاً يقتدي بصاحبته محبو الانسانية وتستنير به العقول المظلمة

ومستشفى مارتوما هذا من الابنية التي تفتخر بها البلاد الانكليزية وقد اقيم اظهاراً لفضل تلك السيدة النبيلة التي وهبت حياتها لامتها وضحّت سعادتها في سبيل إسعاد غيرها وتخفيف آلام الجرحى في حرب القرم

قالت احدى الشهيرات ان اوربا عموماً وانكلترا خصوصاً مدينة لفلورنس نيتنكال تلك التي غيّرت مجرى الرأي العام فرفعت شأن التمريض الذي احتقرهُ الناس يومئذٍ حاسبيهِ حطّةً فكانت لا تتعاطاهُ الاّ التي لا تصلح لعمل سواهُ فاصبحت الممرّضة في تلك الايام عبارة عن امرأة ذات وجهٍ كالح وصوت خشن شرسة الاخلاق جافية الطباع يهلع قلب العليل خوفاً حين اقترابها منهُ . فابن تلك الايام من ايامنا هذه التي نرى فيها الممرضات من الطبقة الاولى في التهذيب ودماثة الاخلاق فانهنّ ياخذنَ هذا الفن عن اربابهِ ويشترط قبول الواحدة منهنّ ان تكون حائزةً على شهادة من احسن مدارس اوربا وان يكون لها شديد الرغبة في التمريض لانهُ من الاعمال الشاقة المتعبة .

ولدت فلورنس نيتنكال في اواخر ايام جورج الثاني ملك الانكليز وكان

والدها من الشرفاء المثرين فظهرت فيها منذ نعومة اظفارها عاطفة الشفقة والحنو والاعتناء بالمرضى. فكانت وهي صغيرة تجعل نفسها بمنزلة طبيب ولعبها بمنزلة المرضى ولقد صدق من قال أرني ولدك بماذا يلعب انبئك ماذا يكون في مستقبل حياته

وكانت الحيوانات الاهلية تلاحظ بفطرتها علامات الحنو البادية على وجه فلورنس فتدنو منها بدون وجل ولا خوف . وفي احد الايام اخبرها احد فلاحي والدها ان كلبهُ جُرح جرحاً اليماً وانهُ مزمع على قتلهِ فطلبت اليهِ والدموع تذرف من عينيها ان يتمهل ريثما تنظر في امرهِ وكانت المزرعة بعيدة عن بيتها فسألت قسيس كيستها ان يرافقها فلم يرَ بدًّا من اجابة طلبها على رغم كثرة اشغالهِ ولما بلغت المكان غسلت رجل الكلب وربطتها وما زالت تعودهُ المرّة بعد الاخرى الى ان شفي تماماً فهذه قصة من قصص عديدة تري صفاتها وهي ابنة صغيرة

وفي تلك الايام لم يكن تعليم البنات امرًا عموميًّا والانكليز انكروا على البنت تعلم العلوم العالية . اما والد فلورنس نيتنكال فخالف هذا الرأي وحتم بوجوب تهذيب بناتهِ ولذا كان لها حظٌّ كبيرٌ من العلم قلَّ ان يتهيأ لسواها من البنات يومئذٍ

وكانت فلورنس ميالةً للموسيقى والاشغال اليدوية وهذا اكسبها خفةً ورشاقةً في تضميد الجراح بعد ئذٍ

وبعد ان اكملت علومها وضعت نصب عينيها العمل والافادة فكان شعارها مساعدة المتألمين ولكنها ادركت انها لا تقوى على مساعدة العليل حق المساعدة ما لم تعرف سبب دائهِ وطريقة شفائهِ .

قلنا انها كانت تميل الى درس فن التمريض ولكن كيف تقدم على هذا العمل ولم تتقدمها فيهِ سيدة قبلها . وكيف تفتكر بهِ والعالم ينكرهُ حتى على احط

النساء . ولكنها بعد ان افتكرت ملياً عقدت النية على درس هذا الفن المتهن ولو مهما قال عنها الناس . فكانت تقول — ان التعصب ناشئ عن الجهل فصاري العالم ان هذا الفن لمن انفع الفنون واجلها فالاعمال تحتقر وتعتبر بحسب قوى العامل ومقدرته — وعليه ذهبت الى جرمانيا ودخلت احسن مستشفى هناك وفي سنة ١٨٥١ اكملت دروسها فيه ورجعت الى وطنها تمرض فقراء مدينتها

وفي تلك الاثناء تعكرجو السياسة في اوربا وانتشبت حرب القرم ونشرت الجرائد تفاصيل المعارك وهولها . وعلا النداء طلباً للاعتناء بالجرحى الكثيرين الذين كانوا يسقطون في ساحة الحرب . ومما كتبته جريدة التيمس — " انها لحالة محزنة ان نرى الشبان المجاهدين في سبيل بلادهم يموتون من عدم الاعتناء وقلة الوسائل فان الجريح يمرض الجريح والميت يدفن الميت "

وكانت فلورنس نيتنكال تقرأ الجرائد وتطّلع على تفاصيل الحرب كما يطّلع عليها غيرها ولكن التأثير يكون اشدّ في نفوس ذوي العواطف الشريفة والقلوب الرقيقة وعليه فانها مع علمها بما ستلاقيه من المصاعب والمشاق في الذهاب الى ساحة الحرب فقد استسهلت الصعب وكتبت للمستر سدني الذي صار وزيراً للحربية بعدئذٍ مقدمةً نفسها للمساعدة على انه في الوقت الذي اخذت القلم لتكتب له بشأن ذلك اخذ هو قلمه وحرّرها طالباً مساعدتها فكان ذلك من باب توارد الخواطر الغريب . فبلغها كتابه الذي يقول فيه اننا نحتاج الى عدد من الممرضات والى مديرة للمستشفى ولست اجد اهلاً لهذا العمل الخطير سواكِ فهل لكِ ان تمدي يد المساعدة وتقبلي ادارة المستشفى ولكِ السلطة المطلقة في تنفيذ كل ما تطلبينه من الحكومة لنجاح عملكِ . اما هي فبعد معاناة اتعاب شديدة تمكنت من اقناع ٤٣ راهبة للذهاب معها .

وهذه خلاصة ما كتبت عنها جريدة التيمس : ان نيتنكال سيدة شريفة

الاصل حديثة السن جميلة المنظر طويلة القامة مهيبة الطلعة هادئة الطبع وتظهر لاول وهلة انها جامدة ولكنها حينما تتكلم تبرق عيناها باشعة الذكاء والمحبة وقد كرّست حياتها لدرس شرائع الصحة وهي الان ذاهبة لساحة الحرب لاغاثة المرضى والجرحى .

نعم قد سفكت دماء كثيرين من الابطال في تلك الحرب ولكن فلورنس نيتنكال كانت ولم تزل بطل تلك الحرب فانها غيّرت مجرى الفكر العام في بلادها فقد دهش العالم بأسره يومئذٍ من انهُ كيف ترضى سيدة شريفة ذات جمال وثروة بشغل حقير كهذا وامامها مستقبل مجيد وحياة سعيدة . اما هي فلم تبالِ باقوال الناس بل مشت في طليعة اولئك الممرضات وهدمت اسوارًا من التعصب ودكّت حصونًا من عادات بلادها ووصلت الى ساحة الحرب في ٥ك اسنة ١٨٥٣ و بلغت المستشفى في ابان معركة انكارمن وكان عدد الجرحى اربعة آلاف والمستشفى واقع على البوسنور وهو قلعة قديمة العهد وهبها الاتراك للانكليز فلم يكن هناك من أسرّة وثياب كافية للعساكر فاخذت تخبط مع الممرضات لوازم المرضى من ثياب وفرش وغيرها وكانت ابدًا تحثُّ ممرضاتها على تمام الطاعة لاوامر الجرّاحين وكانت هي مثالاً لهنّ بذلك . وكتبت عنها جريدة التيمس تقول: ان وجود نيتنكال بين المتألمين وتبسماتها من افعل الوسائل لتخفيف آلامهم . فكانت بعد ذهاب الاطباء والجرّاحين تحمل قنديلها وتجول بينهم مشجعة هذا ومطيبة قلب ذاك بكلماتها اللطيفة وكانت اعناق الجرحى تتطاول من الاسرّة للنظر الى وجهها الملائكي واما هي فكانت تنظر اليهم بقلب ملؤهُ الرقة والحنان فتخفف آلامهم . وقد تفعل المؤاساة اكثر مما يفعل الدواء

وعملها هذا اضرم الغيرة والحماسة في صدور كثيرين من سكان بلادها فامدوها بالاموال وتغنى بمديحها الشعراء ومنهم لونكفلو الذي نظم فيها قصيدته

المعروفة "بالسيدة وقنديلها" اشارة الى جولاتها اليومي بين المرضى. ولقد اثر فضلها في نفوس الخاصة والعامة ايضاً فكان سائقو العربات يترنمون بها قائلين "نيتنكال الشرف. ذات القلب الصالح"

وكتب احد الجنود يقول عنها نعم لم نتمكن من الكلام مع كل المرضى ولكنها كانت تتبسم في وجوه الجميع فكنا نقبل ظلها الواقع على اسرتنا.

ثم زارت مستشفى آخر للعساكر وهو كناية عن اكواخ حقيرة حيث كانت المرضى مضجعة على الارض تئن وتتوجع فبقيت هناك عدة اسابيع تعمل كل ما يمكنها لراحة اولئك التعساء. ولشدة تعبها اصابتها الحمى فلازمت الفراش وقتاً طويلاً وهاك ما قالت بعد ان شفيت "اني كنت اتضايق لعدم وجود نافذة في غرفتي انظر منها الى الجبال والطبيعة التي كنت اتوق الى مشاهدتها. ولا انسى عظم فرح العليل ببباقة من الازهار تأتيه من احد اصحابه. ان ذلك كان من اسباب تعجيل شفائي"

وبعد ان الفت الحرب اوزارها اخذ الوطن يستعد للاحتفال بملاقاة ابطاله الراجعين من حومة الوغى وكانت الامة الانكليزية تعد فلورنس نيتنكال في مقدمة اولئك الابطال. اما هي فلما احست باتنويه الامة احتفاء بها ابت الرجوع مع الجنود لانها لم تعبأ بالمظاهرات والتخفيات فبقيت في المستشفى مدة من الزمان ثم رجعت الى لندن بدون ان تعلم احداً بقدومها حتى ان اهلها واقاربها اندهشوا لما دخلت عليهم بدون انتظار. وكان المرض والتعب قد انهك جسمها فطلبت الراحة والهدوء على انها لم ترجع صحتها بعد ذلك الى ما كانت عليه فبقيت ضعيفة الجسم نحيلة غير ان ضعف جسمها لم يمنعها من استخدام قوى عقلها في سبيل الخير العام فاسست جمعية الصليب لاعانة جرحى الحرب ومستشفى للاولاد في لسبون ومستشفى في اوستراليا وآخر في الهند وكان لها اليد الطولى في تأسيس كل المستشفيات التي انشئت في بلاد الانكليز مدة

فلورنس نيتنغال

ربع القرن الاخير ولما انقد وطيس الحرب الاهلية في اميركا كانت ترد اليها التحاريز لاخذ آرائها في فن التمريض وقد ساعدت الجرحى في الحرب بين المانيا وفرنسا سنة ١٨٧٠ ومنحتها ملكة الانكليز باحتفال شائق لقب سيدة شرف وهو اسمى لقب تطمع بنيله سيدة انكليزية وكانت العادة ان يقدّم وسامهُ ضمن علبة مرصعة بالحجارة الكريمة اما هي فطلبت ان يقدّم لها بدون علبة وان ينفق ثمن العلبة على بناء مستشفى للاولاد

وقدّم لها الشعب الانكليزي مبلغ ٥٠٠٠٠ الف ليرة لينفق على بناء مستشفى باسمها فاقامت فيهِ واخذت على عهدتها تعليم الممرضات

وكانت مؤلفة بارعة فافادت العالم بتصانيفها العديدة منها كتاب عنوانهُ "بعض النصائح للمرضى" وآخر موضوعهُ "ملاحظات على المستشفيات" وآخر عنوانهُ "حكمة الله بمعاملة الانسان" وآخر بحثت فيهِ عن التخلص من الموت في بلاد الهند وكانت تشير دائمًا في كتاباتها الى وجوب بناء مستشفيات للصغار وهاك بعض اقوالها بعد ان مارست فن التمريض نحو ربع قرن: "اني اسرُّ كثيرًا بان ارى مئات من النساء الشريفات قد سلكنَ في السبيل الذي فتحتهُ لهنَّ ان فن التمريض لاسمى واشرف فن يحتاج الى درس وتعلم. فاذا كان المصور يقضي وقتًا طويلاً في تصوير بعض خلائق الله على قطعة ورق او رخام فكم يجب ان يبذل من الوقت والانتباه في سبيل اتقان فن معالجة الجسم الانساني الحاوي روح الله". ومن اقوالها "ان تشجع المريض من افضل الوسائل لشفائهِ"

هذه سيرة امرأة قرنت علمها وايمانها بالعمل فخلّدت ويلات كثيرين وانارت قلوبًا مظلمة فعسى ان تؤثر حياتها في قلوب كثيرات من اخواتها فيستخدمنَ مواهبهنَّ لرفع شأن الانسانية

تاريخ حياة

اليس فريمن بالمر

ب ع . دف . دش . د

وضع كتاب تاريخ حياة اليس فريمن الاستاذ جورج هربرت بالمر زوجها قال :

ثلاثة اشياء تدفعني لكتابة حياة اليس فريمن بالمر

اولاً ان اليس فريمن كانت زوجتي ولها ذكرى حب واحترام في قلبي . وبدوام هذه الذكرى تدوم سعادتي . فلا يجدر بنا نحن الاحياء ان ننسى الاموات وان تواروا عنا في ظلمات اللحود ولعل قلمي العاجز يجلب للقارىء شيئاً من السرور والبركة التي حصلت انا على ملئها في مدة حياتي الزوجية

ثانياً علاوة على كونها امرأتي ، فهي كانت بحد ذاتها نابغة واحدى زعيمات النهضة العلمية في بلادها ، ممتازة في مقدرتها وشخصيتها . فقد يمكن ان احداً غيري من اصحابها ومعارفها العديدين يقوم فيدوّن تاريخ حياتها ، وما اكملته من جليل الاعمال خدمة لبلادها . فان مريديها ومعارفها كانوا يعجبون بتلك القوة الغريبة والتأثير العظيم اللذين كانا لها حتى امتد تأثيرها من شرقي البلاد الى غربيها مع انها لم تمتز عن غيرها بالعلم والمعرفة . كان لها عينان جذابتان بنور الاخلاص والجمال اذا تفرست بهما في وجه شخص سحرته وجددت همته فاحيت آماله وسهلت امامه المصاعب والمشاكل . عشت معها ١٥ سنة ولم ادرك كنه ذلك السر او تلك القوة الجذابة فيها . وقد جرب كثيرون من

المصورين اخذ صورتها وفي كل مرة كانت تختلف عما هي . فاذا كانت اشعة الشمس لم تقوَ على اظهار صورتها كما هي للملإ فانّى لقلمي العاجز ان يصور تلك النفس و يظهر جمالها للقارىء . بيد اني اكتفي بان اكتب بعض مظاهر تلك النفس الداخلية العظيمة واريها للذين لم يعرفوها

ثالثًا رغبتي في تتبع الحركة الاجتماعية التي كانت البس من اهم اركانها والقائمين بها . ففي ايامها حدث انقلاب عظيم في عالم العلم والتهذيب فانشئت كليات عديدة وفتحت ابواب جديدة كانت مقفلة في وجه المرأة . فمن الملذ ان نتتبع حركة التهذيب بدرس حياة قواد تلك الحركة والعاملين في اثارها ونرى ما كان لهم من الامال العظيمة وما كان يعترض في سبيلهم من الصعوبات والمشاكل ونقف على نتائج جهادهم واعمالهم التي يدونها لهم التاريخ

امور ثلاثة دفعتني لوضع هذا الكتاب وهي . اولاً حبي الشديد لها ثانيًا اظهار صورتها للعالم . ثالثًا الحق التاريخي

طفوليتها

وُلدت البس فريمن في ٢١ شباط سنة ١٨٥٥ في قرية صغيرة من ولاية مشيغان ونموها في احضان الطبيعة ورؤيتها عظمة تلك الجبال والاودية ومراقبتها الجداول والانهر تتحدر في المنخفضات . وجولانها بين تلك الحقول المزدانة بالازهار والسوسن اكسبها البساطة وحب الجمال وافهمها شيئًا عن انتظام الطبيعة وتوازنها وهدمها وغرس فيها حب الانفراد والتأمل واللذة في الامور الصغيرة

وكما ان المكان والمناخ له تأثير على حياة الشخص فالعائلة لها تاثير اكبر واهمية عظمى في تكوين حياة الفرد . لان الفرد حلقة من سلسلة لا انفصال له

عن اسلافهِ واجدادهِ الذين اورثوهُ من الصفات والمزايا ما جعلهُ شخصاً منفرداً مستقلاً بصفاتهِ وغرائزهِ. واهم ارث للولد هو ان يكون حلقة من سلسلة لاجداد عرفوا بالفضل والتقوى ونبل الصفات وهذا ما كانت عليهِ النفوس فريدين. نعم انهُ لم ينبغ من اسلافها من دوّن التاريخ اسماءهم ولم يشتهر منهم من امتاز بالجاه والغنى غير انهم كانوا من الافراد الذين تفتخر البلاد بهم. عاشوا في بيوت بسيطة لكنهم عرفوا بين مواطنيهم بالامانة والنشاط والغيرة على المصالح العمومية فكان بيتهم محط رحال الجيرة وموضوع اعتبارهم وقد زاولت والدتها وجدتها حرفة التعليم فرفعا حالة الهيئة الاجتماعية في زمانهما وكان والدها طبيباً نشيطاً غيوراً

وكما انها ورثت من اجدادها حب العمل وخدمة الغير باخلاص وامانة فقد ورثت ايضاً نحافة الجسم والميل الى الامراض الصدرية. لم يكن من خدم وحشم في بيتها حتى ولا من اسباب للراحة والرفاهة. بل كان كل فرد يقوم بما عليهِ من الواجبات. ان الاولاد الذين لم يذوقوا الحاجة والفقر لا يفقهون معنى السرور الحقيقي. فاذا كان العمل هو سر السعادة واساس تقدم القوى في الانسان فاحرى بنا الشفقة على الاولاد الاغنياء الذين لا يمرنون قواهم على العمل وليس لهم من دافع للنشاط والجهاد الذي ينمي فيهم ذلك العزم الذي يدك جبال المصاعب والمشقات. فالبيوت التي يتعاون افرادها في قضاء اعمالهم البيتية وفي المساء يجتمع الوالدان وحولهم اولادهم كل يقص ما جرى لهُ من الاختبار والحوادث ثم يشتركون معاً بتوجيه افكارهم الى خالق الكون ويقتربون اليهِ بطلباتهم وتمنياتهم عائلة كهذه تربي اولاداً صالحين للهيئة الاجتماعية

حياتها كتلميذة

ولما كان لها من العمر ١٠ سنوات نال والدها شهادتهُ الطبية وانتقل بعائلتهِ الى مدينة وندسور حيث دخلت البس مدرستها وظهرت فيها روح الزعامة فانتخبت نائبة تمثل مدرستها في مسابقة الخطابة بين اربع مدارس ففازت بالجائزة الاولى لحسن القائها وانشائها

خطبتها

ودخل مدرستها معلم غيور نشيط احدث تأثيرًا في حياة التلامذة. وجعل نهضة علمية ادبية في المدرسة. وللقوة الشخصية تأثير في كل مكان وهي تظهر على اشدها في المدارس بين الاحداث

ولا يحدث التأثير الشخصي الا اصحاب الصفات الادبية العالية والمبادىء القويمة. ووجه ذلك المعلم الغيور الفتاة بنوع خصوصي الى تلك الفتاة الذكية. وقد ادرك ما لها من المواهب العقلية. فاخذ يساعدها و يسهر على انماء مواهبها فهذب ذوقها، ووسع مداركها، وقوى ثقتها بنفسها. ففهمت عظمة الله في الطبيعة وجلالهُ. وما زال يتعهد قواها، ويعمل على انماء مداركها، حتى دخلت في طور القوة والصبا. فهل يستغرب اذا احب هذه الفتاة واختارها دون سواها لتكون شريكة حياتهِ واميالهِ. وهل تقدر فتاة في مركزها ان ترفض حب رجل تنظر اليهِ نظر الاعتبار والتفوق بقواهُ العلمية والادبية، وهكذا وهبتهُ يدها وهي في سن ١٤

غير انها لما تقدمت في العمر تغير نظرها في الحياة ولا سيما ان معاشرة خطيبها الاديب جعلتها تفهم اكثر معنى التهذيب الحقيقي والغرض منهُ. ورأت نفسها دون خطيبها علمًا ومعرفةً وشعرت بخطارة مركزها المستقبل، وانها ان

لم تعدّ نفسها في كلية عالية وتتناول من العلوم العالية ما يؤهلها لان تكون شريكة لخطيبها . فلا تستحق محبة من رجلها . لانها اخذت تفهم ان الزواج هو اتحاد شخصين متساويين بحيث يهب كل للآخر ما يجعل حياتهُ الزوجية اغنى وافضل ولهذا رأت ان الافضل لكليهما ان يفترقا . فافترقا على تفاهم واحترام . وقد اكمل هو دروسهُ في جامعة يال وسيم قسيساً ولم تعد تراهُ لكنها لم تنسَ ما لهُ من الفضل عليها . لانهُ انار عقلها وافهمها تطلبات المرأة من الزوج . ولذا فقد سلمت من الانقياد الى عواطف طالما اوقعت الفتاة في مخاطر جمة

تلميذة في الكلية

وفضلاً عن ذلك فقد صار لها الآن فرصة الدخول الى كلية كبرى ولكن انّى لها ذلك ووالدها على ما هو عليهِ من ضيق ذات اليد . ولم يكن الرأي العام يومئذٍ يسلم بضرورة تعليم البنات في كليات عالية بل ان حزباً كبيراً كان يعارض فكرة التعليم المختلط اي البنات والصبيان في مدرسة واحدة ولما كاشفت والدها بفكرها رفض اجابة طلبها قائلاً ان احوالهُ المالية الحاضرة لا تمكنهُ الآمن ارسال واحد من اولادهِ الى كلية عالية وهذا يجب ان يكون لاخيها لان عليهِ معتمد العائلة في المستقبل . ولما لم يقدر على اقناعها ورأى ثبات عزمها ورغبتها الشديدة اذعن لطلبها واختار لها كلية ان اربور Ann Arbor وكان صنفها مؤلفاً من ٦٤ شاباً و١٢ بنتاً ولم يكن تعليم الصبيان والبنات معاً بالامر العمومي لا بل ان حزباً كبيراً في البلاد كان ضد هذه الفكرة . فكان مركز هولاء البنات حرجاً للغاية فهنّ كقائدات لمن بعدهنّ واول صف بنات دخلنَ كلية صبيان ادركنَ المسؤولية العظمى وشعرنَ انهُ على سلوكهنّ وتصرفهنّ في تلك الكلية ازاء صف كبير من الشباب يتوقف مصير اخواتهنّ في البلاد . فرأت هؤلاء الفتيات ان يؤلفنَ وحدة تامة ويعشنَ

متكاتفات ازاء ظروفهنّ الحرجة . وكانت الس اصغرهنّ سنًّا واشدهنّ غيرة على مصالح تلك العائلة فملكت قلوب الجميع بعواطفها الرقيقة وانكار نفسها في خدمة الغير والمصلحة العمومية فاصبحت زعيمة اولئك البنات

ولم تندم لاختيار والدهـا مدرسة مختلطة لتهذيبها . وقد قالت بعد الاختبار انها تعتقد ان معاشرة الجنسين ما يوسع التخيلات ويقوي العقل وينزع من الفريقين ما سخف من الغرائز الجنسية . والتهذيب المشترك لا يرجل النساء ولا يؤنث الرجال كما يزعم الكثيرون . بل انه يجعل العقل السليم والرزانة تحل محل الرعونة والخفة التي يظهرها من لا يعاشر غير جنسه . وقد نسبت نجاحها في ادارة كليتها الى تهذيبها مع الرجال والاشتراك في مراميهم الى خدمة البلاد

ولما كانت في صف المدركين لحق والدها خسارة مالية فشعرت بثقل حال والدها اذا استمر على ارسال نفقتها وقبل ان تستشيرهُ تركت الكلية وتعاطت عملاً تحصل منهُ نفقتها للسنتين المقبلتين . فطُلبت لادارة مدرسة يومية وقد اظهرت على حداثة اختبارها حزمًا ودراية اعجبت عمدة المدرسة فطلبت اليها ان تبقى في هذا المركز اما هي فوضعت في نفسها ان تنال الشهادة البكلورية . فتركت المدرسة ودرست بالصيف ما فاتها من المسائل في غيابها نصف السنة . ونالت شهادة الكلية ولها من العمر ٢١ سنة . واشتدت حالة والدها المالية ضيقًا فباع بيتهُ واملاكهُ ليوفي مداينيهِ واصيبت اختها الصغرى بمرض السل فكان عليها ان تساعد والدها بالقيام باود العائلة وتعليم اخيها الذي اصبح في سن مناسب للدخول الى كلية كبرى

دخولها في العمل

دخلت اولاً معلمة للغة اللاتينية في مدرسة مشيغان . وهاك ما كتبت

جواباً لاحدى صديقاتها . قالت "تسألينني في ما هي الطرق التي استعملها كي اكتسب ثقة تلميذاتي واستولي على عقولهن واميالهن" . فقد رأيت ان اهم ما يحتاج اليه الاحداث هو المحبة – تلك الشمس المحيية – فبامكان كل معلمة ان تبعث نور المحبة الى اعماق قلوب اولئك الاحداث . فتوقظ فيهم القوى الغير المحدودة في النفس البشرية هذا هو مرمى الديانة المسيحية ، وما هي الديانة اذا لم تجعل تابعها يحب من حوله و يحسب منهم

وكانت تميل الى علم التاريخ فرأت ان تخصص نفسها لدرس هذا العلم وتنال رتبة معلم علوم غير ان ظروفها الضيقة وكثرة ساعات العمل حالت دون درسها المتواصل

وفي سنة ١٨٧٧ دعيت لادارة مدرسة عالية في ولاية مشيغان وكانت تلك المدرسة في حالة سيئة من اختلال الادارة وقيام المشاغب والاحزاب فيها . وبعد اشهر قليلة تمكنت بحكمتها من اخماد نار الاحزاب الثائرة واكتسبت ثقة المعلمين والتلامذة فساد النظام والسلام

كلية ولسلي Wellesley

ثم دعيت لتكون استاذ التاريخ في كلية ولسلي . وقد اسس هذه الكلية هنري ديورنت Henry Durant احد المحامين الذين اشتهروا في حل الدعاوي فجمع ثروة طائلة وعاش عيشة البذخ والاسراف وكان شاعراً عالماً غير انهُ كان مستبدًّا قاسي القلب . وهو في اوج مجدهِ ، وتألق نجم سعدهِ ، اصيب بوفاة ولدهِ الوحيد الذي كان محط امالهِ . فهذه الضربة غيرت مجرى حياتهِ ، وحولت نظرهُ من الامور العالمية الى الامور السماوية . ولكي يتخلص من ماضي حياتهِ التي كانت لجة تفسو واشباع مطامعهِ ، عزم على ان يصرف كل ما ملكت يداهُ من الثروة والعقار في سبيل النفع العام . وكانت

امرأة اكبر منشط له في ذلك واعتقدا ان افضل خدمة يقدمانها لبلادهما ويخلدان بها ذكر ولدهما هو تأسيس كلية للبنات لان المرأة هي احوج للتعلم من الرجل . فوهب بيته في ولسلي التي تبعد عن بوستن ١٥ ميلاً وكل ما حولهُ من الاملاك التي تبلغ مساحتها ثلاثمئة فدان وهي ارض تحتوي على تلال جميلة وسهول مخصبة واودية مثمرة تنتهي على شاطئ بحيرة وان وسلم هذه الاملاك للجنة امناء وصرّح امامهم انهُ يأبى ان تدعى باسمهِ او توضع صورتهُ فيها . وجعل شعار المدرسة قول المسيح (جئت لأُخدَم لا لأُخدَم) واشترط ان يصرف اول ربع ساعة من كل صباح ، بالصلاة وتوجيهِ الفكر الى الخالق

وقد فضل اختيار اساتذة من النساء على الرجال مع ندرة وجود نساء قادرات في تلك الايام على تدريس العلوم العالية . وترأس المدرسة هو بنفسهِ وكان كهلاً مستبدًّا في رأيهِ ينتظر طاعة عمياء ممن يشتغل معهُ . ووقعت المدرسة في ضيق مالي فجعل ساعات التعليم في الاسبوع ٢٥ ساعة وهذا ادى الى اعتلال صحة كثيرات من معلماتهِ

استاذ التاريخ في كلية ولسلي

فالى هذه الكلية دعيت اليس فريمن لتكون استاذة التاريخ ولها من العمر ٢٤ سنة واشتهرت في حسن اسلوبها في التعليم ومقدرتها على حفظ النظام في الصفوف واخلاصها في عملها . وكانت حرة الفكر قوية الارادة لطيفة الاسلوب قوية الحجة وهذا ما جعل لها اعتبارًا واحترامًا في اعين رئيس المدرسة وعمدتها مع انها كانت من اشدهنَّ مقاومة لارائهِ المستبدة

ولم تلبث طويلاً حتى اعتل جسمها لما تحملت من المشاق وشظف العيش لتوفر ما تساعد بهِ والدها بمصروف العائلة . فاصيبت بترف رئوي — ولما رآها الطبيب حكم بتركها العمل حالاً ، وانذرها بانها لا تعيش اكثر من ستة

اشهر إذا لم تعتنِ بصحتها . وعرضت نفسها على طبيب ثانٍ واخبرته بحكم الاول فاجابها بصوتٍ ملؤهُ الشعور والثقة و بعينين تشعان حنوًّا ولطفًا. لكِ ان تعيشي حياة طويلة اذا كان لكِ ارادة قوية وعزم ثابت واشار عليها بالعيشة في الهواء النقي واخذ الاطعمة المغذية واعطاها بعض التعليمات الصحية فتركت المدرسة وعملت بمشورته . و بعد ستة اشهر رجعت الى عملها قوية الجسم نشيطة نقية الدم

رئاستها ولسلي

و بعد رجوعها استعفت الرئيسة وانحرفت صحة مدير المدرسة فألقيت اليها مقاليد الرئاسة مع ما كانت عليهِ من المشاكل والمصاعب . ولما رأت ان العهدة ، وضعت بها تمام الثقة ، وشعرت بخطارة المركز الذي انتدبت لهُ ، جمعت صف المنتهيات والقت عليهنَّ خطابًا ، اميلت بهِ اليها قلوب اولئك الحدثات النشيطات ، . فعاهدنها على ان يخلصنَ لها الطاعة و يبذلنَ قواهنَّ في ضبط المدرسة وقيادة باقي الصفوف الى حفظ النظام . لكي تلتفت هي الى تدبير شؤون الكلية

واول عمل وجهت اليهِ انتباهها هو تنظيم لائحة الدرس فوضعت نصب عينيها ان تجعل كلية ولسلي تضاهي ارقى الكليات علمًا ونظامًا . ولا يتسنى لها ذلك ما لم يكن لها مدارس اعدادية تمدها بالتلميذات فسعت في اصلاح وتنظيم خمسة عشر مدرسة اعدادية في ولاية مشيغان وضعت في اكثرها منتهيات من كلية ولسلي . ثم سعت في ايجاد غرف مناسبة تقيم بها الطالبات اذ لم يكن من بيوت حول الكلية فتمكنت بواسطة هبات بعض الاصحاب الاغنياء من بناء بيوت وغرف تقيم بها التلميذات اللواتي زاد عددهنَّ من اربع مئة الى ست مئة . وغيرت في روانب المدرسة حتى تمكن البنات الفقراء من تحصيل العلم .

وكانت لاتألو جهداً في ايجاد اسباب الراحة والبسط لمعلماتها . فانها كانت تعتقد ان النشاط في العمل والغيرة في تتميم الواجب لا ينتظر ممن تعلم طول النهار بدون ساعات راحة لها وكانت دقيقة البصر نقادة تعرف القدير الامين في عمله فتكرمه وترقيه وتعطي مواضيع التعليم حسب ما يناسب فوق المعلمة لا حسب ما تراه هي مناسباً

ثم التفتت الى المكتبة ذلك النبع الذي تستقي منه التلميذات مصدر حياتها الادبية والعلمية فنظمت برنامجها واكثرت ايضاً من اوائل الرياضة التي تزيد في تحسين الصحة والسرور

ولما ساد النظام والترتيب في شؤون كليتها الداخلية وميزانيتها اخذت تسعى في تمكين العلائق بينها وبين غيرها من الكليات . لان مركز ولسلي كان منفرداً موحداً. ففتحت منابر الكلية لمشاهير الخطباء والعلماء ولتمثيل الروايات الادبية العالية والموسيقى. ولكي تعوّد بناتها على حسن السلوك في الهيئة الاجتماعية كانت تقيم حفلات انس وسهرات ادبية ضمن قاعات المدرسة تدعو اليها بعض الادباء في الكليات المجاورة . واظهرت مقدرة ودراية في ادارة الكلية حتى جعلتها في مصاف ارقى الكليات واكبرها في اميركا وكان لها منزلة سامية في قلوب المعلمات والتلميذات فكانت تجعلهنّ يشعرن ان الكلية لهنّ وعليهنّ يتوقف ارتقاؤها وعلو اسمها وكانت تنظر الى حسنات الفرد وتغض النظر عن سيئاته وكان لها طرق فعالة في ترغيب تلميذاتها للحياة الفضلى حسب قصد الله فيهنّ . وفي سنة ١٨٨٢ منحتها جامعة آن اربر Ann Arbor لقب دكتور في الفلسفة

وفي سنة ١٨٨٤ التأم مؤتمر تهذيبي في انكلترا وكانت هي احد النواب الثلاث الذين ارسلتهم مدارس اميركا . فالقت خطاباً في الحياة والعلم كان افضل خطاب في موضوعه

وفي سنة ١٨٨٧ منحتها جامعة كولمبيا لقب دكتور في الآداب ومنحتها جامعة الاتحاد لقب دكتور في الشريعة

زواجها

كنت احب ان اضرب صفحًا عن ذكر ما ساذكرهُ من المسائل الشخصية التي لا يهم احدًا الاطلاع عليها. ولكن مسألة زواجها هيج الرأي العام ضدي، ولعلهُ اثر في الجمهور كثيرًا. غير ان الشجاعة والتضحية التي اظهرتها في هذه الظروف ارت العالم صفاتها التي جعلتها امرأة عظيمة. ان من يتوخى كتابة تاريخ الاشخاص عليهِ ان يذكر المحيط والوسط اللذين فعلا في تكوين صفات سامية في من نكتب عنهم

عرفتها لاول مرة في بيت احد اساتذة جامعة كمبردج سنة ١٨٨٤ ومن ذلك الحين اخذت صداقتنا تنمو وتزيد حتى كانت سنة ١٨٨٧ وفي ٢١ شباط يوم عيد ميلادها جئتها خاطبًا وفي نهاية تلك السنة اعلنت فكرها لعمدة كلية ولسلي بتركها مركزها. لكن كيف تقبل العمدة استعفاءها وفي يدها حياة المدرسة. فطلبت اليها ان تبقى في مركزها سنة اخرى ريثما تدبر رئيسة بدلاً منها. فاذعنت لطلبهم، لان حبها للكلية ولعملها، صم اذنيها واغمض عينيها عن توسلاتي الحارة بتركها المدرسة باسرع ما يمكن. اما انا فاذعنت صاغرًا وسلمت مرغمًا ببقائها لعيد الميلاد. وقام الرأي العام ضدي مستندين في قولهم "ان من اعطي ان يخدم مصلحة العموم عليهِ ان يضحي مصلحتهُ الشخصية، فالملوك لا يتزوجون الا بما يوافق مصلحة الرعية، فاذا خضع ملك او امير لسلطان عواطفهِ ورفض التاج ليتزوج بمن يهواها جعل نفسهُ هدفًا لالسنة الناس وقصة يتحدث بها العالم. ان المواهب لا يجوز ان يستأثر بها فرد واحد هي ملك العموم، ملك البلاد التي انشأتها. ان المدنية تقوم على

اكتاف افراد يضحون مصالحهم الشخصية في سبيل العلم والفن – في سبيل المبدإ

هذه سيدة قلبت بقوتها فكر الراي العمومي وجعلتهم يرون افضلية تهذيب المرأة في كليات عالية بعد ان انكروا ذلك عليها

وسعت في اخراج بنات جنسها الى عالم العلم الواسع فدخلت المرأة في عهد جديد من صفحات التاريخ وفتحت الكليات والجامعات ابوابها في وجهها بعد ان اقفلتها عهداً طويلاً

أيجوز ان تخطف الان من ساحة العمل لتحصر نفسها في بيت ضيق المجال وتثبت للملإ ما يتوهمه الناس في ان المرأة تطرح اعظم مسؤولية ازاء كلمة الحب تهمس في اذنها

وكلام كهذا كان كسهم يخرق نفسها الحساسة وطلبت اليّ عمدة ولسلي ان اكشف عن اساءتي اليهم بان استعفي من مركزي في جامعة هرفرد Harvard واشاركها في الرئاسة والمسؤولية.

وكتب احدهم اليّ قائلاً "ألا تقدر انت الذي مددت يديك الينا بالاساءة ان تمدها بالمساعدة، فتقبل طلبنا وتشاركنا في ادارة كلية ولسلي. وتبرع احدهم بتقديم بيت يبنيه جديداً لنا وتعهد ايضاً بجمع راتب لي وكان راتبها السنوي اربعة الاف ريال وراتبي (ثلاثة الاف وخمس مئة) فتقدر ان نعيش عيشة الرفاه والرخاء في كمية هذا مقدارها لكن رفضت ذلك بتاتاً

اولاً لاني اعتقد ان عملها قد اكمل في كلية ولسلي فقد بدأت في العمل وداست كل الصعوبات ومهدت العقبات التي تعترض في بداءة كل مشروع. فلا يصعب على من يأتي بعدها ان يسير في طريق مهدت عقباته. ان الكليات لا تخلق بكلمة واحدة، بل تنمو تدريجاً، وهذه الكلية التي قامت بهمة شخص واحد يجب ان تأخذ طوراً جديداً لينسى لها حياة دائمة، يجب ان تزول عنها الصبغة الشخصية ليستلمها الشعب، وتحسب عمومية، فمن الضروري ان تتغير

العمدة التي اقيمت برأي موسسها المرحوم والرئيسة التي شاركته في كثير من آرائه وافكاره. نعم الكليات توسس بهمة افراد امتازوا بمقدرتهم ومواهبهم غير ان تلك المشاريع تصبح في خطر عظيم اذا بقيت مستندة على ذراع ذلك الشخص قال ذلك المعلم العظيم "وان يكن الحزن قد ملأ قلوبكم لكنه خير لكم ان انطلق" افضل طريقة لنمو الافراد هو ان تضع مسؤولية عليهم. وفضلاً عن ذلك ان اليس فريمن اصبحت بعد احتمالها صعوبات جمة نحيفة الجسم ضعيفة الاعصاب وهذا ما جعلني ان اعتقد انه من المستحيل ان تبقى طويلاً تحت ضغط العمل المستمر. فانحت عليها بترك المدرسة لاحملها الى بيتي واجعل لها متسعاً تظهر به مواهبها وقواها. واني اعتقد ان البيت والمحبة يزيدان في مواهب المرأة. وقد شعرت ان عملي هو ان انهد تلك المواهب والقوى فيها حتى يجني العموم اثمار خدمتها وينتفع العالم بمواهبها. لا لكي استأثر بها وحدي كما افهمني البعض

وقد كتب عنها الرئيس البوت قال: "ان اليس فريمن بعد خدمة ست سنوات اظهرت في خلالها من القوى العقلية وحسن الادارة قوة فائقة في جذب القلوب اليها بالمحبة والاعتبار تركت هذا العمل وتزوجت في سن ٣٢ لتدخل في باب آخر من اعمال هذه الحياة وفي ولوجها هذا الباب أثرت العالم اعتقادها الوثيق واعتبارها للحياة الاجتماعية فان المحبة الزوجية تمنح كلاً من الجنسين نفعاً اعم وسعادة اقوى وقد برهنت للعالم ان المرأة المتهذبة تهذيباً عالياً حقيقياً هي حجر اقوى واثبت في بناء الهيئة الاجتماعية"

حياتها الزوجية

ان الاعمال والمشاريع التي بدأت بها اليس فريمن لخدمة الانسانية قبل زواجها لم تنتهِ بعدهُ. بل لقد زادت رغبة ونشاطاً فقد صار لها الان من يهتم

بصحتها وشعورها بالسعادة البيتية واوقد غيرتها وزاد عزمها في السعي لاسعاد غيرها

صرفنا سنتنا الاولى في درس اخلاق بعضنا البعض ومعرفة الاصدقاء والجيران معرفة ادق واعمق فكنا نزور ونزار، الامر الذي لم اعتد عليه قبلاً، لا في لم اكن ممن يهتمون بمعاشرة الناس والاختلاط بهم، وكنت ارى بوناً في اخلاقنا وطبائعنا، فان معاشرة الناس واستماع احاديثهم والاشتراك في مراميهم كان ينشطها و يجدد قوتها . اما انا فكان ذلك يتعبني و يوهن قواي غير انه اخذ كل منا يجاري الآخر في طبعه فاخذت هي شيئاً من طبعي الجدي واكتسبت انا منها شيئاً من اللذة في الحياة الاجتماعية وهكذا اكمل الواحد منا الثاني . فزادت الفائدة والنفع

وقد رأيت انها تحتاج الى راحة طويلة ولذا سافرت بها الى اوربا في طلب الراحة . فقصدنا الاماكن القليلة المصاريف والكثيرة السرور ولما مررنا بانكلترا لاحظنا ان الشمس هي احدى مكتشفات كولمبس فقد يصرف المرء اياماً لا يرى الشمس تطل عليه باشعتها اللامعة . فان الاميركي يشعر ان الغيوم جعلت للمطر فمتى سكبت نقطها على الارض تذهب في حال سبيلها . اما في انكلترا فالضباب دائم القتام في جوهم فهو كستار جعل ليحجب اشعة الشمس النيرة . كنا نجول من مكان الى مكان نتجنب اللوكندات نسكن في بيوت نستأجرها شهراً او اكثر . ومما زاد في جمال سفرتنا وسرورنا، هو اننا كنا نقطع المسافات من مدينة الى مدينة، ومن بلاد الى بلاد راكبين على بسكلاتنا، ومعدل ما كنا نقطعه في النهار ٣٥ ميلاً فاجتزنا بريطانيا ونورمندي ومن فرنسا الى ايطاليا واستريا والبونان وفي مرورنا بين ايطاليا واستريا كنا نتبع مجرى الانهر المنحدرة بين الجبال لوطرق الدواب والمكارين . هذه الرياضة منحتنا قوة واختباراً لا يحصل عليه من يسافر بالسكك الحديدية

فالراكب على بسكلات ، يشعر ان العالم له ، يميل يميناً او شمالاً ، يشعر بنسيمات الهواء البليل يتمتع بالمناظر الجميلة برتاح متى وابن شاء . كنا نجمع زهوراً ، نزور اديرة ، نقف عند الينابيع والانهر الجميلة ، نأكل تحت ظل الاشجار بجانب الينابيع ، وقد تعلمنا بالاختبار ان نطلب حاجياتنا من النساء الغلامات السريعات الحركة الرشيقات القوام ، الرقيقات الشعور ، الطيبات القلوب . فان المرأة بمزاولتها القسم العقلي من اعمال الحياة كبيع المحصولات وتربية الاولاد وخدمة المرضى يجعلها ارقى عقلاً واسرع بداهة من الرجل . فالمرأة تفهم بالاشارة ما لا يفهمه الرجل الا بعدة سؤالات

هكذا صرفنا سنة الراحة وما اثمن واحلى الامور التي ذخرناها في عقولنا والقوة التي اكتسبتها اجسامنا اختبارات تتبعنا الى ايام شيخوختنا فتنيرها بتذكارات لذيذة حلوة

وقد كتبت اليس في هذه السفرة ما يأتي :

"ما اجمل منظر النتيات يجمعن الحشيش والحزم والنساء ينشرن الغسيل في الهواء المطلق والمواشي منتشرة على التلال وفي الاودية في طلب الكلإ وصوت اجراسها يختلط مع غناء الرعاة فتؤلف انغاماً شجية تأتي الينا من بعيد وصوت السواقي والجداول كأنها الحاناً آتية الينا من العالم الثاني فنسمعها كما في حلم . قد صرفنا ثلاث اسابيع في بيت استأجرناهُ في باريس . ان الشعب الفرنساوي كالاولاد الكبار يطلبون ابداً اشياء ولعباً جميلة"

والناس هنا ديمقراطيون شعارهم المساواة والاخاء فالخادمة تخاطب الخواجا موسيو وهو بدوره يدعوها مدام والغريب يرى لطفاً وادباً كيف ما التفت فهم يسعون وراء الجمال والمجاملة ، وهذا ما يطلبهُ الغريب و يسر به . لكن اذا حدث ما بوجب وضع اللطف والمجاملة على جانب ، فهم اقسى قلباً واكثر انفعالاً من غيرهم . وهم يسيرون ضمن عوائد واتيكات محدودة لا يتعدونها فهم من هذا

القبيل اشبه بالعينين تقيداً بالعادات والرسوم . الآن نحن في طريقنا الى النمسا وقد جلست على حجر بجانب الطريق اكتب هذه الكلمات وقد اجتمع حولي عدد من النساء من الحقول المجاورة يتفرسون في البسكلات و يعجبون من سفرنا عليها من بلاد الى بلاد . ولما وصلنا الى آخر حدود ايطاليا رأينا نهراً صغيراً يفصل البلادين وعلى كل طرف من الجسر وقف ثلاثة جنود ، كل يلبس زي بلاده . ولما ادّينا الرسم المعين مشى امامنا جندي نمساوي وسلمنا الى الجنود النمساوية القائمة مقابلة . وهنا علّم على بسكلاتنا ودخلنا ارضاً نمساوية

عيشتها البيتية

ان من كان مسؤولاً بتحصيل معاشه يرى ان العمل يسوقه سوقاً فلا يترك له مجالاً ليعمل ما يختار ويشتهي . وهكذا كان الحال مع اليس فان حياتها صرفت بالجهاد والكد حتى صار عمرها ٣٢ سنة . اما الآن فقد اصبحت محاطة بكل ما تشتهي من زوج محب واصدقاء مخلصين ، وكتب عديدة ، وسياحات منعشة ، وخدم امناء ، ومصيف تتنقل اليه في طلب الراحة . كانت تعمل اولاً مدفوعة بالواجب مسيّرة لا مخيّرة ، اما الآن فتعمل اعمالها بدافع اللذة والسرور ، مختارة حرة مطلقة التصرف في وقتها . هنا يظهر جوهر الفرد وفي ظروف كهذه تعرف شخصية المرء . واني بكل ثقة اقول ان اعمالها وقت اختيارها زاد اضعافاً عما كان في وقت تقييدها في الواجب فقد خدمت الانسانية بقوة اعظم وغيرة اشد ، من يوم كانت معينة تتقاضى اجرة على اعمالها . فان الراحة التي حصلت عليها في بيتها زاد في قوتها وامضى عزيمتها فوسعت ساحة العمل امامها . وخرجت من دائرة ضيقة الى دائرة اوسع من تعليم وادارة عدد محدود من البنات ، الى خدمة اعم ، الى السعي في تهذيب

كل بنات بلادها عموماً. كل هذا ولم تهمل واجباتها البيتية. وكنت قد اوجست خيفة ان الخمسة عشر سنة التي صرفتها في المدارس نزعت منها الميل الى ادارة البيوت واعداد الطعام او بالحري ان الرأي العام ضد تعليم البنات علوماً عالية كان قد اثر على عقلي فجعلني في ريب من وجود لذة فيها لتدبير امورها المنزلية غير اني بعد الاختبار اعترف بكل صراحة ان مخاوفي كانت في غير محلها فقد رأيتها تدبر مملكتها الصغيرة بكل دراية وحكمة حتى اصبحت مستشارة لكثير من السيدات في تحضير الطعام وعمل المربيات وتنظيف السجاد ومعاملة الخدم وغير ذلك كما كانت مقصداً لكثير من المعلمات وارباب التهذيب في كيفية امور التربية والتعليم

فكانت تعمل واجباتها اليومية بتفنن واتقان وشغاني براحة من تحب

ان من مرّن قواه العقلية وهذّب نفسه يسهل عليه ملاحظة الامور الصغيرة واتقانها وتكييف حياته حسب ظروفه الحاضرة. وصاحبة البيت التي ترتب وقتها وتنظم امورها تجد مجالاً لها من الوقت لخدمة الانسانية المحتاجة ولبسط الاصدقاء والمعارف

كانت تعامل خدمها بكل حكمة ورقة فلم يكن لطفها ليطمعهم فيتمردون ولا توبيخها يُحرجهم فيتركون نظرهم لم روح اللطف والمؤاساة فيشعرون كأنهم واحدٌ من العائلة. وقد بقيت عندها احدى الخدم عشر سنوات والثانية ظلت الى يوم مماتها

لم تُرزق اولاداً لكنها كانت اماً لكثير من الاولاد الذين كانوا بحاجة الى حنو وعطف امّ. فبيتها لم يخلُ من اولاد سكنوا به سنيناً، ومائدتها قلما خلت من ضيوف واصحاب ومع كثرة اشغالها لم تنسَ مرة ميتم الاولاد الفقراء الذي تبرعت بالذهاب اليه كل اسبوع فكانت تسير مسافة ميلين لتعمل لاولئك الصغار ما يسرهم من الكلام وينعشهم من القصص. فكانت كاشعة شمس تدخل

قلوب اولئك المساكين فتحيي امالاً ذابلة في نفوسهم

هذا عدا عن الزوار الذين كانوا يؤمون بيتها من الكليات المجاورة واعضاء جمعيات ولجان وتلامذة فكانت تنصح وتنشط وتؤنب كلاً بحسب ما يحتاج .

وقد صدق فيها قول الشاعر ما معناهُ

يستشيرها الحكيم فيزداد حكمة والبسيط فتستنير افكارهُ
والجاهل فتستقيم اعمالهُ

ولست انسى مساعدتها في صفوفي . نعم انها لم تكن تتلذذ بعلم الفلسفة الفرع الذي كنت استاذهُ . غير انها كانت تفتخر بعلمي فتعرّفت بتلامذتي فكانت تضمهم في بيتها وتعزمهم على مائدتها فتمكنت بواسطة تأثيرها ان اصادق تلامذتي فصرت ارى التعليم الذ واحلى وهم كذلك كانوا يرون مثائلهم

خدمتها معاهد العلم والتهذيب

كانت غايتها القصوى في اعمالها وخدماتها تهذيب المرأة وترقيتها فيما يزيدها جمالاً في صفاتها ونفعاً في الهيئة الاجتماعية . وقد مشت امام اخواتها النساء واظهرت للملإ بجماتها وتصرفها ان البساطة واللطف والشعور مما رفع منزلتها وعظم اسمها في اعين مواطنيها

فهي لم تندفع للخدمات العمومية بعامل الشهرة او كرهًا بالواجبات البيتية . كلا . بل حصولها على السعادة زاد في قواها ومواهبها حتى فاضت خدماتها الى ما وراء جدران بيتها فعمّت كثيرًا من المشاريع الخيرية والكليات التي امدتها بمساعدات حموية في كيانها . فقد قامت في زمن انقلاب وتطور مهم في حياة المرأة يوم اخذت تتملص من قيود التقاليد والعادات القديمة

العقيمة وتسعى في دخول المعاهد العلمية التي كان قد اقفلها الرجل في وجهها وهذا طور مهم في حياة الامة فان الانقلاب من حالة الى حالة قد يصحبه مخاطر عظيمة اذا لم تدعمه ادمغة حكيمة وقوة شخصية عالية فان هذه الحالة يومئذٍ اخافت كثيرين من الحكماء المفكرين وخشوا ان هذا التطور في المرأة يؤدي الى عاقبة لا تحمد واعتقدوا ان تطلبها العلم ومجاراتها الرجل في الاعمال مما يفقدها تلك القوة المعنوية الروحية تلك النعومة والدماثة اللتين اورثتها اياها الاجيال. فاذا دخلت معه في معترك الحياة لابد من ان تجاريه بخشونة الحياة وقساوتها فرأت مسز بالمر ان تهدىء مخاوف المتفائلين

وأرت العالم بسلوكها وتصرفها ان العلم الحقيقي والتهذيب العالي يزيد في غرائز المرأة الطبيعية ويوصل بها تلك الصفات النسائية السامية الموروثة. فهي كقائدة لبنات جنسها اللواتي طرحن عنهن قيود العادات والتقاليد بذلت جهدها قولاً وفعلاً في تسديد خطوات المرأة في سبل الصلاح والاستقامة وعلمها رأت ان تداوم خدمتها. فبعد ان تزوجت وتركت رئاسة ولسلي قبلت ان تكون عضواً عاملاً في اللجنة الادارية لتلك الكلية، وبكل اخلاص وحكمة كانت تدبر حركة تلك اللجنة العاملة ولم تقتصر مساعدتها في كلية ولسلي بل انها في سنة ١٨٩٢ تأسست جامعة شيكاغو، ودعتنا كلانا للعمل فيها، فطلبت من مسز بالمر ان تكون استاذة التاريخ ومديرة القسم النسائي، ودعتني انا لاكون مدير فرع الفلسفة. وكانت الاجرة التي دُفعت لكلينا ما يغرّ ويحمل النفس على قبول مركز كهذا دون تردد. لكنها فضلت العيشة البيتية على ارتباطها في مدرسة، اما انا فقد شعرت بصعوبة في تركي معهداً غرست فيه امالي، وزرعت مبادئي، وقد اخذت تنمو وارى نتائجها في تلاميذي. ولذا رفضنا طلب جامعة شيكاغو. غير ان لجاجة الرئيس تغلبت اخيراً على عواطف مسز بالمر فقبلت ادارة القسم النسائي فقط الذي لا يتطلب من وقتها غير ثلاثة اشهر ولذا كنت ارافقها الى تلك الجامعة

في عطلي المدرسية . ولما نظمت الامور هناك وجعلت حقوق المرأة في تلك الجامعة كما هي للرجل وازالت كثيرًا من الصعوبات المعترضة استعفت بعد خدمة ثلاث سنوات وسلمت العمل لغيرها وبقيت تساعد مساعدة ادبية واخذت تسعى لجعل كل الكليات في البلاد تضم في عداد تلامذتها النساء والرجال معًا لاعتقادها ان التعليم المختلط ، احسن انواع التهذيب لاعلاء شأن البلاد والهيئة الاجتماعية

عملها في الجمعيات.

ثم وجهت التفاتها لتأليف جمعيات تضم المتخرجات في الكليات ليكنّ عونًا يعضدنَ مقاصد الكليات التي نشأن فيها وينشرنَ مبادئها . وحدث ان جمعية في بوستن كان اعضاؤها من اغنى نساء تلك البلدة وغاية هذه الجمعية النظر في احوال المدارس الابتدائية في احياء المدينة ، ورفع حالة البنات العاملات ، وارسال ممرضات الى الاحياء ليعلم الامهات كيفية تمريض اولادهنّ . وانشاء مكتبة سيارة ، وغيرها من الامور النافعة التي تفعل في ملاشاة التعاسة وتزيد في سعادة الحياة . سارت هذه الجمعية عدة سنوات واخذت تتراجع التهقرى واستولى عليها الفتور والخمول ، ودخل الشقاق والتحزب بين اعضائها . فدعت هذه الجمعية لرئاستها مسز بالمر . اما هي فمع انها كانت تكره العمل مع طبقة كهذه من النساء اللواتي تعتقد فيهنّ الخيلاء ومحبة الذات ، رأت ان تقبل هذا المركز وتسعى في تحسين حالتها . فازالت ما كان من الاختلاف بين اعضائها فنمت وزادت وبقيت في كرسي الرئاسة تسع سنوات متوالية

فكانت تلك الجمعية بركة لمحيطها واحسن واسطة لخدمة بلادها . وفي سنة ١٨٨٩ عُينت عضوًا في مجلس معارف الحكومة في ولاية مستشوست Massachussetts وبقيت شاغلة هذا المركز ٢١ سنة وكان على اعضائه

الاهتمام بمدارس المعلمين ولا يخفى ما يستلزم ذلك من الخطب والنصائح والانتقادات والحكمة والذوق . وقد اشتهرت بمقدرتها على جعل الغير ينقادون الى رايها و يعملون باقتراحاتها . فغيرت كثيراً من الطرق والكتب القديمة وابدلتها بطرق حديثة نافعة وجعلت الامتحانات اصعب لينتفى لها معلمات اقدر واقوى

وكانت عضواً في جمعية المرسلين . وفي سنة ١٩٠٠ وصلت كلية برد فورد Brad Ford الى حالة سيئة من التأخر والانحطاط . فدعت مسز بالمر لتكون عضواً في لجنة الامناء . وبعد ان خدمتها ثلاث سنوات تركتها وكانت لجنة امنائها من افضل الناس علماً وادباً وغنى وانهضت تلك المدرسة من غفلة النوم الى نور الحياة والنشاط . ويعوزني الوقت اذا تبسطت في كل اعمالها وخدماتها سيما خطبها العديدة فقد كانت تلقي في السنة الواحدة نحواً من اربعين خطاباً وبهذه الخطب قدرت ان تستولي على عقول الناس وتنفعهم بقوة منطقها واخلاصها وحسن تصرفها ورفعة مبادئها الى مساعدتها في كل مشروع تضع فيه يدها . وقد كتب عنها الرئيس انكل Angell "كان لمسز بالمر تلك القوة الجذابة الساحرة التي يندر وجودها في كثير من الخطباء فانها كانت تملك سامعيها وتستولي على عقولهم من اول كلمة الى آخرها لغتها بسيطة صوتها رنان فصيحة الكلام اذا تكلمت احدثت تأثيراً عظيماً في النفس فيشعر كل سامع ان كلامها موجه اليه"

كانت مواضيعها من اختباراتها وسفراتها واطلاعها الواسع على عادات الناس واخلاقهم ولم تكن لتقبل اجرة لقاء خطبها وخدماتها هذه ما عدا ادارتها القسم الثاني في شيكاغو الذي كانت تتقاضى عليه اجرة معينة

واصابة رأيها وحكمتها في اعمالها الفنا على عاتقها مسؤولية كل المشاريع التي كان لها دخل فيها وقلما كانت تخيب سائلاً او طالب مساعدة . وكان لها

قوة غريبة على استطلاع كنه الاشخاص فقلما كانت تخطىء في من تضع بهم ثقتها وتعتقد فيهم المقدرة . ولذا كان يقوم افراد من مريديها يبذلون كل ما فيهم من الغيرة والنشاط للأخذ بيدها فكانوا لها اكبر مساعد وهذا كان سر نجاحها وقوتها المعنوية . فانه لما حدثت الحرب بين اميركا واسبانيا سنة ١٩٠٠ طُلب اليها ان تمد يد المساعدة للمرأة في (كوبا) وتسعى لفتح مدارس لها هناك . فرأت ان هذا العمل يتطلب وقتاً ومالاً وكانت تكاتب اصحابها وتلميذاتها الكثيرات . وهاك بعض ارائها في رسالة لاحدى صديقاتها

"اني متأسفة لانولك في كتابك الاخير انك لا ترين نتائج لخدماتك العديدة مع اني اعتقد انه لا بد من صدى لكل خدمات الانسان في هذا العالم . اخالك لا ترين نمو ابتك من يوم الى يوم وهي نفسها لا تدرك ذلك او تشعر به لكن النمو حاصل . ولماذا تطلبين واجبات فوق واجباتك الحاضرة التي تقومينها بشجاعة كلية . لي الثقة التامة انك تتركين بلدتك احسن حالاً وارق هيئة من يوم دخلتها . فتشجعي وثقي بالله فيبارك عملك كام وزوجة واخت وصديقة وجارة فلا بد من تأثير لخدماتك واعمالك

وكتبت لغيرها

وليس لها الآن تدر اكف الاغنياء في اميركا لارسال الدراهم لتأسيس المشروعات الخيرية والمدارس فترأست جمعية مساعدة نساء (كوبا) وكان الاميرال ساوسون احد مستشاري تلك الجمعية فاخذت مسز بالمر تلقي الخطب الرنانة وتحرك هم الناس فامدوها بالمال واثارت جمعية البنات في الكليات والمدارس فالفن فيما بينهن جمعيات وتعهدن ان يمدوها بالمال والمعلمات

وتالفت لجنة في اميركا لمساعدة مهاجري التليان الذين كانوا يذوقون العذاب في اول قدومهم لبلاد غريبة اللغة والعوائد فترأست هذه الجمعية

ثلاث سنوات اصبحت في خلالها موضوع اعتبار اولئك النوم وانتشر اسمها في بلادهم. واذكر اني لما كنت في احدى سفراتي في فينيسيا احتجت الى مساعدة سيدة تليانية فقصدتها فاعتذرت من عدم مساعدتي لضيق وقتها وكثرة اشغالها ثم استأنفنا الحديث ولما علمت اني زوج البس فريمن زالت كل صعوبة أولّبت عن طيبة خاطر ما رفضته قبلاً قائلة ومن لا يلبي طلبًا باسم مسز بالمر وهي موضوع اعتبار ومحبة كل تليانية

وفاتها

وفي سنة ١٩٣٠ كانت سنة عطلتنا المدرسية فصرفنا الصيف في مصيفنا في بوكسفرد، وفي اوائل الخريف سافرنا الى اوربا ولما وصلنا الى فرنسا. اشتد عليها الالم الذي كانت تشعر به من قبل. واصابتها نوبات مؤلمة فحكم الاطباء ان حالتها تنذر بالخطر، ولا بد من عملية مخطرة في امعائها. فتلقت هذا الخبر بكل هدوء وسكينة، واظهرت في موتها كما اظهرت في حياتها، ايمانها الشديد واتباعها مبدأ ذلك الذي لاقى الموت بشجاعة لا مزيد عليها وانتصر عليه. واظهرت في الساعات الاخيرة قبل العملية، رباطة جاش، وتعقل، امتازت بهما في حياتها، فقد ذكرت اسماء اصحابها ومعارفها الذين يجب ان اكتب لهم، واوصت لكل من اهلها واقاربها واصدقائها بكتاب او هدية، وحرضتني ان اكمل تاليف كتاب في الآداب كان من الضروري ان يدرّس تلك السنة في الكلية ثم اعطت آرائها وافكارها للعمل الذي اشترك كلانا به. ثم دعت خادمتها واعطتها بعض الهبات والتعليمات من جهة البيت. اكملت كل هذا بكل هدوء وسكينة. ثم قالت انها مستعدة للعملية فليحضروا اوضة الجراحة. وبعد احتمال آلام ثلاثة ايام اغمضت عينيها بين يدي الاطباء والممرضات لتفتحهما في العالم الاخير

صفاتها واخلاقها

ان الذين تكلموا عنها بعد وفاتها قد وفوها حقها في وصف هيئتها وصفاتها وخدماتها . اما انا فيلذ لي التفكر بها والرجوع بتصوراتي الى ايام كنت اسمع صوتها الموسيقي الشجي . احب ان اغمض عيني فاشعر بحركتها في البيت بخطواتها الرشيقة السريعة احب ان اصفها بالاختصار للقارئ العزيز فيرغب في ان يتصورها بعد ان قرأ عن حياتها . كانت ممزوجة بالمرونة القامة نحيفة الجسم (ضعيفة الرئة والقلب) صبوحة الوجه فرحة القلب اذا حدثها المرء تعطي كل انتباهها وقواها للمتكلم فتجذبه بقوة غريبة فلا يقدر ان يحول نظره عنها تؤثر عليه بجلال منظرها اكثر من جمالها فيرى وراء تلك العينين الجميلتين نفساً شريفة وعواطف سامية ومحبة مخلصة . تلتذ بزقزقة العصفور كما باستماع قطعة موسيقى عالية . تلتفت الى دقائق الامور كما الى كبارها . وكانت تكاتب اعاظم الرجال كما فقراء القوم وكانت متفائلة تنظر الى الوجه المنير في الحياة والاعمال وتحسب الحياة كلعبة فما الخسارة والخيبة الا لمجدد اهمتها في الحصول على الفوز والغلبة واظن ان روح النشاط والهمة مع طيبها الفرح هو اعظم هبة منحتها اياها الطبيعة لتقطع مفاوز هذه الحياة المتعبة . وسلامة قلبها وظرفها كانا كريت ينفعلان في ارجاع اوائل الحياة الى حالة النعومة والسهولة كانت تميل الى استماع الفكاهة وتلتذ بالنكت . وفي احد الايام رأت تلميذة تضحك في وقت الصلاة فنادتها واخذت توبخها . فقالت لها تلك الصغيرة ألا تظنين يا سيدتي ان الله يشترك معنا في الضحك لنكتة لا ضرر منها . فعندها ضحكت مسز بالمر وقالت بلى اظنه يفعل . كان حبها وغضبها شديدين وكانت تشعر بضعفها فاذا شعرت بسورة الغضب تلهي نفسها بشيء حتى يزول غضبها فترجع الى عملها فرحة القلب وكانت حرة الفكر جذابة لها قوة على استخراج حسنات

الناس والانتفاع بها . بسيطة اللباس متقنة . لا اذكر اني رأيت يوماً مكتبها الاّ وكان غاية في الترتيب والاتقان وهكذا كانت في بيتها وترتيب اثاثها

وكانت شجاعة لها قوة غريبة على الاحتمال وضبط النفس . اذكر انهُ كان عليّ القاء محاضرة مهمة في احد الاجتماعات بقيت اياماً استعد لها واصابها في خلال ذلك الم شديد فاحتملت اوجاعها المؤلمة بصبر ثلاثة ايام لم تظهر شيئاً منهُ مخافة ان تزعجني . وبعد ان اكملت محاضرتي اخبرتني فذهبت رأساً لاجراء عملية لها

قال الرئيس اليوت ان من الصفات التي امتازت بها مسز بالمر الشجاعة ان الشجاعة مستحبة في الرجال الاشداء الاقوياء لكنها احب وابهج في المرأة اللطيفة الحنينة "

ومع كل شجاعتها الادبية كانت كأكثر بنات جنسها حذورة تخاف من فارة او بقرة في الطريق

واعظم صفة امتازت بها في الشعور ورقة العواطف وكلما زادت المرأة شعوراً ورقة كلما زادت فضلاً ونبلاً وتاثيراً في حياتها كامرأة

تدينها

كانت مسز بالمر تسمع صوت الله في كل اعمالها وشعورها بحضور الخالق قادها في حياتها وخدماتها . فقوتها الادبية والعلمية كانتا ممزوجتين بروح تدين وتخشع وكانت تعتقد بالخدمات الدينية ولزومها للنفس وكانت تحترم مدرسة الاحد والمواعظ الدينية . كانت تعتقد ان الدين يجب ان يمتزج باعمالنا وكلامنا ولا تعتبر المرء للطائفة التي ينتمي اليها بل للروح التي تظهر في اعماله وصفاته . كان مثالها الاعظم يسوع الناصري الذي سعت ان تكيف حياتها على مثال حياته الالهية الطاهرة

بنديتًا رامباي

او

موسى الهنود

كلما اشتدَّ الظلام كلما زاد لمعان الانوار. فرامباي قامت في بلادٍ اشتد حلك الظلام فيها، فكانت كنور ساطع انارت حياة الالوف من بنات جنسها وبددت حجب الجهل عن عيونهنَّ ورفعت ستائر الظلام واخرجتهنَّ الى بحبوحة النور والمعرفة

وقبل ان نبدأ بسرد تاريخ حياتها لابد لنا من كلمة توضح حالة الوسط الذي عاشت فيه. نشأت رامباي في بلاد الهند التي تعد اوسع البلدان مساحة، واغناها تربة، وافقرها شعباً، واكثرها لغات، تعددت فيها الاديان والمذاهب واشتد فيها التعصب والجهل. يتكلم الهنود اليوم مئتي لغة. يرجع اصلها الى لغتين هما السنسكريتية لغة الكتب الدينية والهندية

ويدين الهنود بمذاهب مختلفة اشهرها الهندو والاسامية (عبادة الطبيعة) والاسلامية والمسيحية واليهودية على ان ديانة الهندو اكثر انتشاراً وعدداً في في البلاد. فسكان بلاد الهند يتراوح بين ٣٥٠ و٤٠٠ مليون منهم نحو ٢١٧ مليوناً هندواو برامة

معتقدات الهندو. يعتقد الهنود ان الهم الازلي واسمهُ ريشا ظهر في ثلاثة مظاهر او تفرع منهُ ثلاثة آلهة. (١) برهم الخالق (٢) وشنو الحافظ

(٣) سيفا الملك

طبقات الهندو. يقسم الهندو الى اربعة طبقات (١) الكهنة (٢) الجند (٣) الفلاحون (٤) الخدام. وتعيش كل طبقة لوحدها لا تختلط مع غيرها لان هذا محرّم دينيًا. ولا يمكن الانتقال من طبقة الى اخرى الاّ عن طريق التقمص والولادة بعد الموت الوفا من المرّات. ولا يمكن لاحد الدخول الى (موكشا) سماء الهنود الاّ للبراهمة الذين يقرأون (الفيدا) الكتب المنزلة. ولا يجوز قراءتها لاحد غيرهم. ومن تجاسر من طبقة الخدّام اعادة آية من آيات الفيدا او استرق سماع كلمة منها يعاقب بصبّ سائلٍ حامٍ او رصاصٍ ذائبٍ في اذنيه او حنجرته

فلا امل لاحد من الطبقات المذكورة ان يدخل السماء او مساكن الآلهة الاّ لمن يصير برهميًا. ولكي يحصل على هذه النعمة يفتح عليه الخضوع التام لاوامر الكهنة واتمام الفروض الدينية. واذا فاز احدهم على رضى الكاهن يتقمص بعد الموت الى جسم اعلى او رتبة ارقى. وهكذا بعد التحوّل والتغيّر الوفا من المرّات يحظى بالمثول امام الآلهة في مساكنهم السموية

مركز المرأة في نظر الهنود. اما المرأة فتحسب عندهم من احط الطبقات وهي لا تدخل الى السماء بالتقمص كالرجل. فالطريقة الوحيدة لحصولها على منازل الآلهة تقوم بعبادتها الرجل كما سيجيء الكلام عنها

ففي محيط كهذا وُلدت رامباي وفي وسط تقاليد وعادات كهذه نشأت من يوم فتحت عينيها لنور الحياة وهاك ما كتبت عن نفسها قالت

"كان والدي برهميًا واحب العزلة والانفراد ليتسنى له التعمق في مطالعة الكتب الدينية وعبادة الآلهة. فبنى بيته على قمة رابية في وسط املاكه الواسعة من حقول الارز وبساتين جوز الهند. وكان بيتنا هذا واقعًا على طريق الحجاج الذين كانوا يمرّون افواجًا افواجًا قاصدين زيارة الاماكن المقدسة ولما كان من مبدإ ديانة والدي ضيافة الغريب لا سيما الحجاج منهم. فتح

بيته للغرباء والضيوف . ولا يخفى ما يستدعي ذلك من النفقات . فلم يمر علينا ثلاث عشرة سنة حتى اصبح والدي صفر اليدين فاضطر ان يترك بيته وينخرط في سلك الدراويش وهم فئة من البراهمة يصرفون حياتهم في التنقل من مكان الى آخر يقرأون الكتب الدينية على الزوار والحجاج

ومع ان والدي كان من المحافظين على تقاليد ديانتنا اشد المحافظة لم يرَ ما يمنع تعليم المرأة قراءة الكتب المقدسة المخطوطة باللغة السنسكريتية الامر الذي كان ينكرهُ عليها اكثر البراهمة . وهكذا بدأ في تعليم والدتي قراءة اللغة السنسكريتية ، فكانت بعد ان تكمل واجباتها البيتية تجلس الى جانب والدي مكبة فوق كتبها . واغاظ عملهُ هذا عددًا من البراهمة فشكوهُ الى رئيسهم ولما حضر امام المجلس اخذ يفسر لهم الكتب الدينية مبينًا لهم انهُ لا يوجد في شريعة برهم ما يمنع تعليم المرأة والطبقة الواطئة اللغة السنسكريتية وخرج من ذلك المجمع وقد اقنع عددًا كبيرًا انهُ لا ضرر البتة من تعليم المرأة قراءة الكتب الدينية بشرط ان لا تمس الفيدا اي الكتب المنزلة

ولما صار لي من العمر ثمان سنوات اخذت والدتي تعلمني قراءة اللغة السنسكريتية وهي تؤمل ان الآلهة تقيض في المستقبل من يعلمني غيرها من العلوم النافعة

وكان والداي لا يسمحان لنا ان نعاشر غيرنا من الاولاد ولا نخالطهم لئلا تفسد تربيتنا الدينية ، ونحيد عن اعتقادات اجدادنا وآبائنا . وكان الاعتقاد الشائع ان العلم الدنيوي غير الديني يمنع المرء من السير في طريق التقمص والولادة فنخسر المنازل الابدية ويحرم علينا الدخول الى موكشا سماء الهنود ونخسر كل امل لنا في الحصول على السعادة الآتية غير ان والدي كان يسمح لي بقراءة الاشعار الدينية وآداب اللغة السنسكريتية مع ان غيرهُ كان يحرمها على المرأة

وبقي والدي في مهنته هذه وهي قراءة الكتب المقدسة على العباد حتى اقعدهُ الضعف عن العمل ، وكنا نحن الصغار لا نجيد القراءة . ولم يعتنِ والدي في تعليمنا غير العلوم الدينية ومع انهُ كان قد جمع بعض الثروة فلو اراد لقدر ان يعلمنا بعض الحرف التي نعتاش منها لكن ايمانهُ كان شديداً بالالهة ، فكان يقول ان الآلهة لا تخلي عنا وقت الضيق ، وهكذا اخذنا نصرف ما وفرنا من الدراهم في مدة مرض والدي تاركين امر تدبير المستقبل للآلهة

وحدث جوع شديد وكانت قد نفدت دراهمنا ، وقلبت لنا الآلهة ظهر المجن فلم تبالِ بتوسلاتنا وطلباتنا ، مع اننا تممنا كل فروضنا الدينية . واشتد الجوع فمات مئات من الناس حولنا ، وتوفي والديّ واخواتي ولم يبقَ منا غير اخي وانا ، فضعفت اجسامنا وخابت امالنا وتركنا الناس وتخلت عنا الآلهة فهمت مع اخي على وجوهنا نطلب ما يسد رمقنا فقطعنا نحواً من الف قدم مشياً وخرجنا من كشمير حتى وصلنا كلكتا في طلب الطعام

دخلنا كلكتا سنة ١٨٧٨ وجلنا في شوارعها مدة من الزمن فتعرّفنا بجماعة من المرسلين المسيحيين . ودعونا يوماً الى اجتماع انس ، فصرت مع اخي نراقب الناس ، ونحن نجهل ما يجري حولنا من الالعاب وانواع التسالي ، وفي آخر الاجتماع فتح احدهم كتاباً وقرأ منهُ شيئاً باللغة السنسكريتية ، ثم ركعوا وركعوا وقالوا شيئاً . ثم قاموا واخذت الناس بالانصراف . وناولني واحد كتاباً اعجبت هيئتهُ الخارجية وعجبت من اتقان طبعهِ وغلافهِ فاخذتهُ منهُ وجرّبت ان اقرأ فيهِ ، فرأيت ان اللغة السنسكرية التي كتب بها كانت غير ما تعلمتهُ في كتبنا فحفظتهُ عندي

وتعرّفت بكثير من العلماء الهندو من رجال طائفتنا وعرفوا مقدرتي في اللغة السنسكريتية الدينية فطلبوا اليّ ان اجمع النساء واقرأ لهنّ من الكتب الدينية ما يختص بواجبات المرأة . فاخذت ادرس هذا الموضوع في الكتب

الدينية على اختلافها. فعرفت اموراً كنت اجهلها وعلمت شيئاً واحداً وهو ان هذه الكتب الدينية على اختلافها وتناقضها، وان الكهنة والعلماء قديمهم وحديثهم وعلى تضاربهم في الاراء والافكار، كلهم يتفقون على شيء واحد وهو ان المرأة فاسدة بالطبع، وانها اسوأ حالاً من ابليس الرجيم، وانها نجسة فلا يمكنها الحصول على السعادة الابدية بالطريقة التي يحصل عليها الرجل اي بالتقمص والتحويل، وان الرجاء الوحيد لدخولها الى موكشا وحصولها على السعادة الابدية تقوم في عبادتها للرجل فالزوج هو اله المرأة، شريركان هذا الاله ام صالحاً قاسياً ام ليناً جاهلاً ام عالماً لا فرق في اية حالة وُجد فهو اله المرأة الوحيد ولا امل لها بالوصول الى اماكن الآلهة اذا لم تنل رضاهُ. فيتحتم عليها والحالة هذه ان تخضع تمام الخضوع لارادته وان تعبدهُ باخلاص وامانة وان لا تجد مسرة في هذا العالم الاَّ بالاستعباد التام له واذا نالت نعمة رضاهُ او نظرة استحسان منهُ فتحصل على الشرف العظيم بان تكون عبدة له واحدى نسائه العديدات اللواتي تمنحهُ الالهة الوفاً منهنَّ في العالم الآتي

هذا هو حظ المرأة في نظر الديانة الهندية وبمائلها تعاسة الطبقة الواطئة اي الخدم اولئك لا يجوز لهم الدخول الى الهياكل التي يدخلها غيرهم من الطبقات وتحتم عليهم عيشة الذل والمسكنة والخضوع للطبقات الاعلى حتى ينالوا بعد الموت التقمص الى جسم اعلى. هذا هو مذهب الهندو الذي كنت واحدة منهُ

وكانت اختي الكبيرة قد تزوجت برهمياً وكانت حياتها مرة معهُ وهذا ما جعل والدي ان يتمهل في تدبير زوج لي حتى لا ينالني ما نال اختي من التعاسة ومن ثم توفي والدي واصابتنا ضيقات عديدة حتى صار عمري ١٣ سنة فتزوجت رجلاً من بنكالا

وكان زوجي هذا قد درس في مدرسة المرسلين وطالع كثيراً من كتب

المسيحيين واستحسن كثيرًا من عاداتهم وعيشتهم البيتية لكنهُ كان يأنف ان يقال عنهُ انهُ صار مسيحيًا وغيَّر مذهبهُ. وكان لهُ عدد من الاصحاب منهم يترددون علينا . وكان احدهم واسمهُ مستر الن يزورنا كثيرًا و يعطينا بعض الكتب لنطالعها فكنت اطالعها بلذة وشعرت ان ايماني بآلهتنا اخذ يتزعزع وصارت نفسي تطلب ما يشبعها من المبادىء السامية . ومرَّة قرأ امامي ذلك المرسل قصة الخليقة من التوراة فرأيتها تختلف كثيرًا عما اقرأها في كتبنا الدينية

وكاشفت زوجي مرة فيما يدور في خاطري من جهة الديانة المسيحية وابنتُ لهُ عظم استحساني مبادئها السامي وان فيها ما يشبع النفس الجائعة . فاظهر غضبًا شديدًا وكراهة في الانضمام الى طائفة تجلب علينا احتقار واستهزاء مواطنينا ، ومنع ذلك المرسل ان يدخل بيتنا . ولا اعلم ماذا كان عمل لولم تدركهُ المنية تلك السنة فتُركت ارملة ولي ابنة صغيرة لا تجاوز السنة من العمر

واخذ الحزن مني كل مأخذ لاني تركت وحيدة شريدة في هذا العالم وقد وفي زوجي واخي الوحيد

وكأن احزاني هذه نبهت فيَّ عواطف وشعورًا كانت كامنةً في نفسي فرأيتني في حاجة الى اعتقاد يرفع بافكاري الى ديانة تشبع نفسي الجائعة—الى قوة علوية ترتكز عليها نفسي المتزعزعة المتضعضعة

وانتقلت بعد وفاة زوجي الى بلدة ثانية وهناك تعرفت ببعض المرسلين الذي وجدت في نفسي راحة الى استماع تعاليمهم وصرت اشعر بسموها ونقاوتها ، وبقيت هناك اربع سنوات ونفسي بين الشك واليقين واخذت اتعلم اللغة الانكليزية فانسعت افكاري وكبرت امالي ورأيت ساحة العمل امامي واسعة الارجاء فسافرت الى انكلترا سنة ١٨٨٣ لادرس في احدى كلياتها واعد نفسي لخدمة بلادي ووطني ، تركت بلادي ومعي عدد من رسائل التوصية فلاقيت كل عطف ورعاية فدخلت كلية البنات و بقيت ادرس فيها خمس سنوات

بنديتا رامباي

وكنت اتردد في العطل المدرسية على بعض الاخوات الفاضلات اللواتي رأيت فيهنّ من انكار النفس وخدمة المحتاج والاخلاص في العمل ما حبّب اليّ ديانتهنّ

وتعرّفت بواحدة كانت قد كرّست حياتها لانهاض المرأة الساقطة تلك التاعسة التي كانت تحكم عليها الهيئة الاجتماعية في الهند بان ترمى للكلاب فتمزق اعضاءها — هنا رأيت الطرق التي تستعملها هذه السيدة ورفيقاتها في نشل تلك التاعسة من هوّة الشر والفساد وشاهدت اعمال المحبة التي تعامل بها اولئك المنكودات فقلت ليت عدداً من مولاء الفاضلات يذهبنَ الى بلادي ويصلحنَ حالة المرأة هناك. وكأني سمعت هاتفاً في داخلي يقول "ولماذا لا تذهبين انتِ وتخدمين بلادكِ" نعم لماذا لا اذهب انا؟ ولماذا اطلب من غيري ان يقوم بخدمة بلادي؟ ولماذا لا ابدأ انا اولاً؟

بعد رجوعها الى الهند

كتبت تاريخ حياتها مطولاً مسز دبر التي عاشرتها عدة سنوات، وعنها نلخص ما يأتي قالت "لما كانت راميباي في كلية البنات، كتبت مقالة نشرتها في احدى المجلات الانكليزية عن المرأة الهندية كيف اوصلها الجهل الى حالة جعلتها عبدة للرجل وكانت اعظم مانع له في الوصول الى الرجولية الحقة واحدثت مقالتها هذه تأثيراً كبيراً في الذين تهمهم حالة المرأة في بلاد الهند. فدُعيت على اثر انتشار هذه المقالة الى زيارة اميركا وقامت بعض فضليات النساء هناك والفنَ جمعية لمساعدتها في تهذيب المرأة الهندية، وجمعنَ مبلغاً

من الدراهم وتعهدنَ هذه المدرسة الى عشر سنوات على امل انها تستقل بعد نهاية هذه المدة واشترطنَ ان تكون علمانية لا تخصص بدين من الاديان ولا تعرض للمباحث الدينية على الاطلاق فقبلت رامباي هذه الشروط ورجعت الى وطنها بلاد الهند سنة ١٨٨٨ وكتبت المجلات والجرائد عن رجوعها لما كان لها من المنزلة العلمية بينهم وعن عزمها في تأسيس مدرسة علمانية للبنات في مدينة بمباي

فبنت المدرسة ودعتها (شاردا سادان) او بيت الحكمة . واجتمع في مدرستها عدد من بنات الهندو المصلحين وهم فئة تهذب آباؤهم في المدارس المسيحية فاخذوا شيئاً من مبادئهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية واصلحوا كثيراً من عادات الهندو وتقاليدهم فخللوا زواج الارملة الصغيرة وحددوا عمر البنت الموافق للزواج فاصبحوا ليسوا من الهندو ولا من المسيحيين

هؤلاء اعجبهم مبدأ مدرسة رامباي وعدم انتسابها الى فئة دينية . غير انهُ كان يوجد بينهنَّ عدد من التلميذات من طوائف مختلفة ومذاهب متعددة

بدأت رامباي مدرستها ببضعة تلميذات وصل عددهنَّ السنة ١٨٩٣ الى الاربعين بنتاً

اعطاء التلميذات حرية الاديان

وقد لاقت صعوبات جمة بتسيير المدرسة على خطة مرضية مقبولة ، وذلك لتعصب الفرق المذهبية المتعددة ولعدم المساواة بين طبقات الهندو ورتبهم فبنات الهندو او البراهمة كان مذهبهنَّ يمنعهنَّ من مواكلة غيرهنَّ من

البنات ومجالستهنّ حتى ان الرئيسة بنديتا رامباي لكونها مسيحية لم يكن ليجوز لها ان تجلس على مائدتهنّ حتى ولا ان تلمس الآنية التي يطبخنَ فيها او ان تدخل غرف نومهنّ او ان تمسّ غرضًا من اغراضهنّ حتى ولا يجوز لهنّ ان يجبنها او برددنَ عليها السلام

وكانت نفسها تتوق الى اعتاق تلامذتها من نير التقاليد العمياء والتعصب المذهبي الذي هو السبب الوحيد في انحطاط بلاد الهند الى درجة كهذه. فرأت ان تقوم بحركة تقضي على هذه التقاليد وتدكّ حصون التعصب وتخرج تلميذاتها الى نور الحرية والمساواة - الى ساحة المحبة والسلام

فلم ترَ غير طريقة واحدة توصلها الى هذه الغاية وهي تربيتهم تربيـة مسيحية واسعة

وكيف يتسنى لها ذلك وقد اتفقت مع عدد من السيدات الفاضلات اللواتي كفلنَ مدرستها لمدة عشر سنوات وتعهدنَ بتقديم مصروفها ونفقاتها واشترطنَ عليها ان تكون علمانية غير منتمية لاحدى الطوائف

وكانت رامباي تعامل تلميذاتها بملء الحرية فكنّ يدخلنَ غرفة الجلوس والمكتبة ويمرحنَ في الجنينة وساحة المدرسة والمطبخ ويستعملنَ البيانو والتلسكوب، كل ذلك لترى اولئك البنات المقيدات المظلومات حلاوة الحرية وتذيقهنّ طعم المحبة الخالصة

وكان عدد كبير من تلميذاتها ارامل لا يتجاوزنَ التسع سنوات وقد تترمل عند الهندو بنت مخطوبة فتحسب ارملة ولا يجوز لها ان تتزوج ثانية

كانت رامباي تراقب هولاء البنات فتراهنّ بعين المستقبل قد انتشرنَ في بلاد الهند واسّسنَ المدارس وأنشأنَ الملاجىء وانرنَ عقول اخواتهنّ اللواتي يخبطنَ في ظلمات الجهل والاستعباد

ومع ان رامباي اعطت حرية الاديان في مدرستها كانت هي تحافظ

تمام المحافظة على مبدإها الديني المسيحي وكانت تجتهد ان تربي ابنتها الصغيرة تربية دينية لانها كانت تعتقد ان العلم وحدهُ لا يشبع النفس فلا بد من مبدإ ديني سامٍ ترتكز عليهِ النفس البشرية فلم تغفل يومًا واحدًا عن اقامة صلاة عائلية في غرفتها الخصوصية وكانت تحبّب الى ابنتها الصغيرة مطالعة الكتاب المقدس . وكانت التلميذات كثيرًا ما ينظرنَ مانو رامباي ابنة رامباي جالسة عند قدمَي والدتها متكئة على حضنها تصغي الى تعاليمها وقصصها العذبة فكانت البنات تدخلنَ الى الغرفة وتجلسنَ بجانب مانو رامباي تشاركنها باستماع القصص والتعاليم الدينية

وعرف اهالي البنات بذلك فقاموا على رامباي واحتجوا عليها ان المدرسة علمانية فلا يجوز لها اقامة الصلاة فيها

وشكوتها لمخالفتها اللجنة التي اشترطت عليها ان تكون المدرسة علمانية . ووقعت رامباي في حيص بيص فالهندو كانوا يتذمرون لانتسابها الى الديانة المسيحية ، ولجنة النساء اللواتي تعهدنَ بنفقات المدرسة كنَّ قد اشترطنَ عليها ان تكون المدرسة علمانية ، فماذا تعمل ؟ وبعد التمعُّن صرّحت امام الجمهور قائلة وان كنت قد تعهدت بان اجعل مدرستي علمانية لانتمي الى طائفة ما ، غير ان لي ملء الحرية في المحافظة على مبدإي الديني الشخصي وان أُربي ابنتي في الديانة التي اعتقد انها الفضلى وساداوم على اقامة صلاة عائلية مسائية في غرفتي الخصوصية ولكل بنت ملء الحرية في ان تحضرها او لا

وانصفت رامباي بالاخلاص والامانة لنفسها ولغيرها وقلبها كان ينبض حبًا وحنوًا وشعرت التلميذات بذلك واحببنها محبة عظيمة وكنَ يسمعنَ بلذة تعاليمها ونصائحها التي ترفع افكارهنَّ الى العلاء وتوسع قوة الخيال في عقولهنَّ الغضة

واجتمع حولها عدد من فضليات النساء المرسلات فرأينَ اخلاصها في اعمالها

وثباتها في مبدإها وجهادها في فكّ قيود الجهل عن بنات جنسها، فمددن لها يد المساعدة واخلصنَ لها الصداقة وساعدنها في العمل، منهنّ سيدة هندية اسمها ساندرباي هذه انضمت اليها في العمل وكانت لها اكبر مساعد في شؤون المدرسة. ومن الاجنبيات عدد كبير منهن منهم مس نلدر وغيرها

انتهت العشر سنوات لتعهد تلك اللجنة وكان الجوع يتهدد بلاد الهند ولا سيما المقاطعات الوسطى فيها ووقعت رامباي حيرى ازاء الاحوال الحاضرة لان هذه آخر سنة تمدّها اللجنة بالمساعدة المالية وحالة البلاد الاقتصادية والجوع المنتشر يحول دون جعل مدرستها تقوم بنفقاتها ونداء الجماع والمعوزين من ابناء جنسها يدمي قلبها. وقد ذكرت المجاعة الماضية وموت والديها واخوتها وما احتملت مع اخيها من المصاعب والاهانات والذل، يوم كانت تجول من مكان الى آخر فتحركت عواطفها واندفعت الى تخليص النساء والاطفال، فتركت المدرسة وليس في جيبها غير اجرة الطريق اما قلبها فكان ملآنًا بالايمان والمحبة وسافرت قاصدة الولايات التي انتشر فيها الجوع

ورأت رامباي ان الحكومة اخذت توزع الطعام على الجياع لكن هيئتهم كانت تكسر القلب فقد جُمع الجياع في مكان اشبه بالحظيرة اصطفوا حول الحيطان وعليهم الاطمار البالية، وبعضهم عراة الابدان، اكثرهم ضعفاء لا يستطيعون الحركة وبينهم الفتاة والشاب والطفل والشيخ والعجوز ينامون في العراء

وكانت الحكومة توزع عليهم الحبوب بدون طبخ فكان الضعيف يناول حصته للقوي حتى يطبخها له وهذا كان يرجّع ثلثها ويلتهم ما بقي. وكانت الامهات يسابقنَ اولادهنّ الصغار على الطعام، وهكذا الضعيف يذهب فريسة للقوي

وكان القائمون بتوزيع الطعام يصرّحون انهم لا يقدرون ان يعملوا افضل

من هذا

رجعت رامباي وقد جلبت معها عددًا من الفتيات بحالة يقصر القلم عن وصفها وفي رجوعها علمت ان احد الاصحاب الافاضل ارسل كمية من الدراهم لتنفق على الجياع فتشدد قلبها واخذت مع مساعديها في مداراة اولئك الفتيات وتنظيف اجسامهنّ من القروح والامراض التي سبّبها الجوع واجتمع لديها ثلاث مئة بنت وارسلت نداء في الجرائد والمجلات تطلب من محبي الانسانية مَدّ يد المساعدة . ولبّى طلبها عدد من المرسلين الافاضل ومحبو الخير هؤلاء اوصلوا نداءها الى اوربا واميركا

وفي سنة ١٨٩٨ انتهت المدة المعينة بينها وبين اللجنة العلمانية فكان جملة ما ارسلوا لها في مدة العشر سنوات ٩١٧٥٠٠ ريال اميركي فساعدت ٥٠٠ فتاة وارملة وبلغت نفقة البنايات والارض ٦٠٧٠٠٠ ريال اميركي . وقدمت اللجنة لرامباي الارض والبنايات لتطوّب باسمها علامة على تقديرهم عملها واعتبارهم اخلاصها ومقدرتها . اما رامباي فلم تقبل ان تطوّب هذه الاملاك باسمها بل حولتها باسم اللجنة الجديدة قائلة اني دخلت العمل ولم يكن معي شيء والله لم يقلّ عني ولا يقلّ عني في المستقبل . ودُعيت سنة ١٨٩٨ الى اميركا لتأليف لجنة جديدة لمساعدتها في العمل الجديد — في بناء الملاجيء لمنكوبي الجوع . ودعتها مسز نلدر لبيتها في نوفا سكوتا وسمعتها تخطب فتأثرت من كلامها وصرحت قائلة اني لم اسمع خطيبة كرامباي . ولما رأت اخلاصها واختبرت مقدرتها وغيرتها في خدمة ابناء جنسها مدت هذه الفاضلة يدها لمساعدتها وبقيت مسز نلدر اربع سنين تجول في انحاء اوربا واميركا وجالت العالم من الشرق الى الغرب من استراليا وزيلاندا الى كندا واميركا واوربا تحرك فيهم اهل الخير والاحسان وترسل لها الاعانات المرة بعد الاخرى . ورامباي تجلب الحولة بعد الحولة الى الملاجيء التي ابتدتها بعد رجوعها من اميركا

ونقلت الملاجئ الى بونا واشترت قطعة ارض مساحتها ١٠٠ فدان

وتفشى مرض الطاعون المخيف في الملاجئ في بونا فهال ذلك رامباي لمنتها كعادتها لاقت هذه المصيبة بالحزم والتروي فارسلت الاصحاء الى الجبال واستأجرت لهم خياماً نصبتها في الاراضي التي كانت ابتاعتها وقصدت ان تزرعها اشجاراً وخضراً لمؤونة المدرسة واخذت وسائل الاحتياط حتى زال الوبأ

رجعت رامباي في اواخر سنة ١٨٩٨ من اميركا وقد صار لها عدد من الاصحاب والاصدقاء المخلصين الافاضل الذين امدوها بالصلاة والصلات ورجع معها عدد من الاميركان تبرعوا لمساعدتها وقدموا انفسهم للعمل تحت ادارتها

رجعت فرأت نفسها امام عمل كبير امام ثلاث مئة امرأة خلصتهم من انياب الجوع والموت ولا يخفى ما يوجد في عدد كهولاء من الامراض الخبيثة والبلايا المعدية التي تحتاج الى اطباء وادوية وممرضات وبيوت خصوصية تمنع سريان العدوى الى الاصحاء

وعلمت ان عدداً من هولاء الفتيات المنكودات الحظ قد اصبن بامراض من اخبث الامراض امراض جرتها عليهن شراهة الرجل في حالة ضعفهن وعوزهن فكان على هولاء الفتيات ان يفرزن لوحدهن ويعشن منفردات كل ايام حياتهن حتى لا تسري العدوى الى غيرهن من الاصحاء

وعمل كهذا يستدعي السرعة ولم يكن معها يومئذٍ ما يقوم بنفقة تلك البناية — فماذا تعمل — يجب ان يبنى لهن مستشفى وملجأ وليس معها بارة الفرد وقامت في احد الايام فدعت معلماتها واللواتي يساعدنها في العمل من اجانب ووطنيين الى البقعة التي نوت البناء فيها ووقفت رامباي في وسط الجمهور

وكانت الشمس قد اذنت بالمغيب وانفت خطابًا مؤثرًا ابانت فيهِ الحاجة الماسة لبناء ملجإٍ لهؤلاء حيث يعاملنَ بحنو ورأفة – في حاجة الى مستشفى تظهر فيهِ روح ذلك المصلح الالهي الذي قال لواحدة منهنَّ "ولا انا ادينكِ ايضًا اذهبي ولا تخطئي" وبعد ان انهت كلماتها المؤثرة دعت احد المرسلين الاميركان وطلبت اليهِ ان يضع الحجر الاساسي وهي تقول "نعم اننا في حاجة الى بناية تكلف الوفًا من الروبيات (عملة هندية) وليس في جيبي واحدة منها لكني اشعر ان الله بجانبنا

وهكذا كان فان الله هيأ لها من ساعدها بجمع المال فأكملت تلك البناية الجميلة وفي بضعة سنين كان فيها ثلاث مئة امرأة من اولئك المنكودات الحظ

وفي سنة ١٩٠٠ حدث جوع في ولايات بمباي وهي من المقاطعات المخصبة التي قلما يحدث فيها الجوع . فانحجمت عنها الامطار ويبست الاعشاب وذوت الاشجار وتضايق الناس . ففتحت ابوابها لقبول المعوزين وزاد عدد النساء والبنات اللاجئات الى بيتها ١٢٥ نفسًا واذ سُئلت رامباي مرة أعندكِ ما يكفي عددًا كهذا من الانفس قالت "ان الله غني وعندهُ الذهب والفضة"

وكان في ملجإها اربع آبار ماء فقدرت ان تروي الف وتسع مئة شخص مدة القيظ ما عدا المواشي التي كانت تبلغ المئة رأس

وقسمت اعمالها الى اقسام عديدة وزّعت العمل على الوكلاء والمدبرات فكان عندها ٤٥ وكيلة كل واحدة جعلتها مسؤولة عن ثلاثين فتاة منهنَّ ١٥٠ تحت السبع سنوات و٥٠٠ بين السبع و١٤ و٦٠٠ بين ١٤ و٢٠ الى الثلاثين سنة من العمر

وقسمت الصفوف الى خمسين صفًا وانشأت للصغار مدرسة البستان اما الكبار فكنَّ يتعلمنَ نصف نهار والنصف الثاني يصرفنهُ بالاشغال اليدوية

كالغسيل والكي والخبز والخياطة وعمل الخروجة والتنانن والازرار والجبال والمكانس والحرامات والسجاد وغيرها من الاعمال المفيدة وكان عندها مكبس للزيت (معصرة) ومطبعة لطبع الكتب والنشرات كل هذه الاعمال كانت تقوم بها النساء. والعمل الذي يتطلب قوة رجل كانت تقوم به امرأتان او اكثر و يعوزني الوقت اذا تبسطت في وصف البنايات المتعددة فهنا مدرسة للعميان وهناك مستشفى للامراض الجلدية وغيره للامراض السارية وهنا مدرسة للبنات الكبار واخرى للمتوسطات واخرى للاطفال وغرف النوم والمكتب

وكانت تطّلع بنفسها على كل هذه البنايات وتساوم بائع الحنطة والخضر والفواكه وغيرها والبيع في الهند يقتضي له وقتٌ للمساومة حتى لا يغلب الشاري

وفي سنة ١٩٠٠ تركت ابنتها رامباي بلاد الانكليز حيث كانت تدرس لتحصل شهادتها العلمية وانت لمساعدة امها ولم تكن قد نالت شهادتها العلمية استدعتها والدتها لتساعدها في ادارة القسم العلمي من المدرسة واظهرت مانو رامباي مقدرة كمعلمة ومدبرة في عملها. غير ان الحكومة طلبت من رامباي انها لا تعدّ مدرستها علمية رسمية وتقبل شهادتها امام الحكومة ما لم تكن مديرتها حائزة على شهادة علمية (ب. ع) وصعب على مانو رامباي ترك والدتها والرجوع لاتمام علومها في احدى الكليات فأخذت تدرس في ساعات فراغها وفي سنة ١٩١٤ نالت شهادتها العلمية من كلية بمباي الانكليزية

وزار احدهم ملاجئ رامباي وهاك ما كتب عنها قال "سمعت كثيرًا عن هذا المشروع العظيم الذي قامت به رامباي وهو ذا النصف لم اخبر به فحالما يدخل الانسان البوابة الكبيرة التي تضم هذه الملاجئ والمدارس يشعر بنسيم السلام والمحبة يرى المرء وسط هذه الساحة المتسعة الارجاء غرف نوم نظيفة

مرتبة ، مطابخ صحية ، بيوت مؤونة متقنة ، مستشفيات جميلة ، مدارس فنية وعلمية ، مساكن بسيطة متقنة يسكن معاونوها والعمال فيها كنيسة واسعة تسع ٥٠٠٠ كرسي تقام بها الصلاة والتعاليم الدينية ، غرف للضيوف والمسافرين كلها مبنية من حجر بالنقان ومسقوفة بالاجر . يحيط بها اشجار وارفة الظلال تتفيأ التلامذة بظلها وعلى مقربة منها البساتين والحقول تمد السكان بالاثمار والفواكه والخضر . هنا شاهدت الصغار يسرحون و يمرحون والضعفاء يتنشقون الهواء النقي فينتعشون . كل شيء يسير بنظام وترتيب لخدمة الله ولمجده "

وكتب غيره عن زيارته هذا المعهد فقال . وصلنا مساء احد الايام الى ضواحي المدينة وكان الليل قد ارخى سدوله واشتد حلك الظلام فنظرنا عن بعد الانوار تشع فعلمنا انها (موكتا) اسم المحل لمعهد رامباي فقادتنا تلك الانوار حتى وصلنا البوابة الكبيرة فأخذنا الى غرفة الضيوف وقدم لنا الطعام حسب الزي الهندي و بعد العشاء حظينا بمشاهدة بندبتا رامباي تلك السيدة التي ذاع صيتها في الشرق والغرب واذا بها داخلة تتكيء على ذراعي ابنتها تلك الفتاة الراقية وكم كان سرورنا عظيما ان نحادثها ونجيب على اسئلتها العديدة التي دلت على مقدرة وذكاء عظيم غير ان ثقل سمعها جعلنا ان نختصر الحديث معها وفي الصباح قمنا نجول بين تلك البنايات المتقنة الجميلة وقد زرنا غرفتها فكانت غاية في البساطة والذوق لم نرَ انها تمتاز عن غرف عالمها ومساعديها في شيء . فرامباي كانت الاولى في كل شيء بين عالمها ومعلماتها وكانت اقوى احتمالاً واشد قوة واعلى مقدرة واكثر زهداً واشد انكاراً للنفس في خدمتها اذا طلب الاقتصاد وانكار النفس كانت هي البادئة

وكان معها سيدة اسمها مس ابرام وقسيس الكنيسة هذان تبرعا بمساعدتها عدة سنوات مجاناً

وبعد سنين قصيرة تعددت المساكن الصغيرة حول ذلك المعهد لسكنى

تلمذاتها اللواتي تزوجنَ وصار لهنَّ عيال واولاد انضموا الى تلامذة المدرسة وبرهنت هؤلاء التلميذات اللواتي تركنَ المدرسة وصرنَ اصحاب عيال وربات بيوت على تأثير التربية التي تعلمنها في المدرسة فكنَّ زوجات امينات محبات لاطفالهنَّ قديرات في تدبير بيوتهنَّ يكرهنَ البطالة والكسل فكنَّ مثال الفضيلة والحياة المسيحية في محيطهنَّ

وفي سنة ١٩١٢ اسست رامباي ملجأً للصبيان كانت تدبر شؤونهُ احدى الاميركانيات وفي تلك السنة عينها دُعيت بنديتا رامباي ان تخطب في حلقة من نساء البراهمة الاكابر وطلبنَ اليها ان تؤسس لهنَّ مدرسة يرسلونَ اليها بناتهنَّ فاجابتهنَّ الى ذلك على شرط ان تعلم فيها المبدأ المسيحي . فرفضت السيدات اولاً هذا الشرط ثم ما لبثنَ طويلاً حتى ارسلنَ بناتهنَّ وبلغ عدد التلميذات ٧٥ من اشرف بنات الهندو وكانت تعتقد ان مبادئ ديانة الهندو وما فيها من التقاليد التي تمنع عدم اختلاط الناس بعضهم مع بعض من اعظم الموانع لارتقاء الامة الهندية وارسلت لادارة هذه المدرسة احدى السيدات الاميركيات مع جملة معلمات وطنيات خريجات من معهدها

اعتاد الهنود اقامة عيد لتذكار زيارة ملك الانكليز بلاد الهند وكانت تقام فيهِ المهرجانات وانواع البسط والسرور فاعلنت رامباي انهُ نهار العيد ستحتفل باقامة حفلة شاي اكرامية لمن كان اكثرنا شغلاً واقلنا كلاماً . وثاني يوم اجتمعت تلامذة المدارس والعيال والمعارف والاصحاب لباحة المدرسة ليقدموا واجب الاكرام للمحتفى بهم . ولما اكتمل عدد المدعوين مشت رامباي في مقدمتهم الى امام زريبة الحيوانات حيث كان قد اجتمع فيها البغال والحمير والجواميس والدجاج والاوز والحمام والكلاب والقطط والفرقدانات وكل الحيوانات الموجودة في ذلك المكان وقالت ان هذه الخلائق اكثر الكل شغلاً واقلها كلاماً فلولاها من كان ينقل لنا الماء و يحمل الاثقال ويجر العربات

و يعطينا الحليب والبيض و يحمي الدار و ياكل الفار، ثم ناولت كل حيوان ما يناسبه من الطعام واشترك التلامذة بتوزيع الشاي على الحيوانات.

ورأت بنديتا رامباي ان تترجم التوراة الى اللغة السنسكريتية العمومية التي يفهمها عامة الشعب فانتدبت لذلك لجنة لمساعدتها و بقيت ١٤ سنة تشتغل بترجمتها حتى اكملتها وكانت تصدر نشرة اسبوعية اسمها جرس الصلاة والفت عددًا من المقالات والكراريس وكانت تصدر مطبعتها مئات من الكتب النافعة

وفي اواخر سنة ١٩٢١ نزلت رزيئة كسرت قلبها بوفاة ابنتها مانو رامباي و بعد سبعة اشهر دُعيت الى بيتها الابدي وكان ذلك في ٥ نيسان سنة ١٩٢٢

فيا لله من يوم عظيم زحفت فيهِ نساء الهند من بلدان متعددة ليرين لآخر مرة وجه تلك الام الحنون وذلك الوجه الجميل الذي كان يحزن لحزنهم و يفرح لفرحهم ذلك القلب الذي كان ينبض حبًا وحنانًا يوم خلصتهم من انياب الجوع والفقر. تلك اليد التي ازاحت عن اعينهم ستائر الجهل والغباوة. اذ شاركتهم في احزانهم وافراحهم بنديتا رامباي او (موسى الهنود منقذ شعب اسرائيل)

وكان لمنعاها رنة حزن في بلاد الهند فدفنت باكرام عظيم وقامت تلامذتها واصحابها واصدقاؤها فجمعوا ٥٠٠٠ ليرة انكليزية لتصرف في نشر العلم والتهذيب تذكارًا لرامباي

وان ماتت فهي تتكلم بعد

CA [redacted]
920.7
M23hA

JAFET LIB.
1 8 APR 1983

3 JAN 1975

JAFET LIB.
1 JUN 1991

CA [redacted]
920.7:M23hA:c.1
المقدسي، امينة خوري
حياة اربع من شهيرات النساء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01045079

CA
920.7
M23hA : c.1